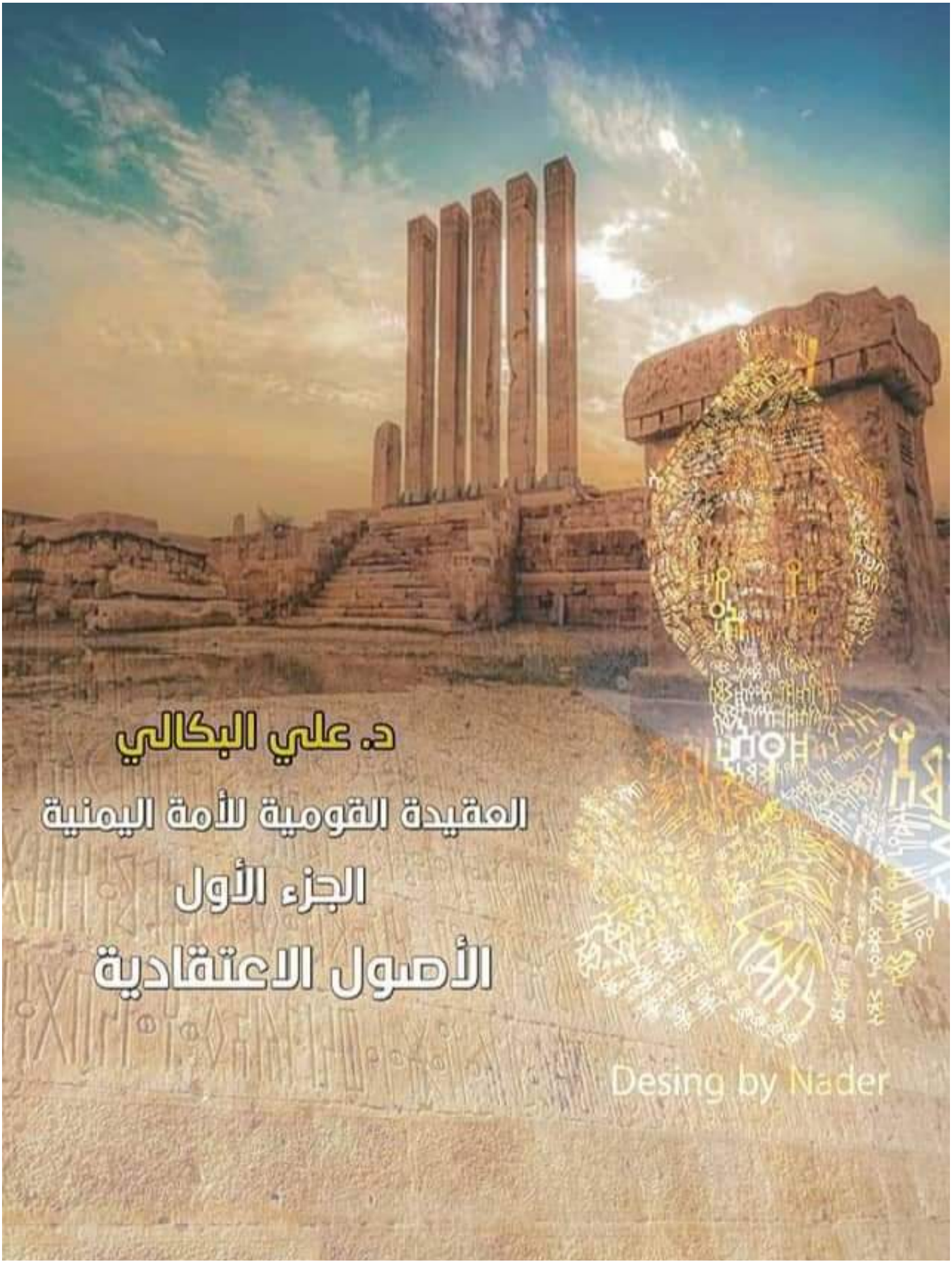
د. علي البكالي
العقيدة القومية للأمة اليمنية
الجزء الأول
الأصول الاعتقادية
Desing by Nader

د. علي البكالي

العقيدة القومية للأمة اليمانية

الجزء الأول

الأصول الاعتقادية

مراجعة لغوية أ/ علي قلي

مؤسسة يمان للدراسات والاعلام

الفهرس

مقدمة المؤلف

الفصل الأول: الأصول الكونية .....

م١: الله الواحد.....

م٢: الوجود وأقسامه.....

م٣: الرسل والأنبياء .....

م٤: الإسلام والدين.....

الفصل الثاني: الأصول الفلسفية.....

١٤: الأديان والحضارة .....

م: الأديان والأوطان .....

م٢: الهوية الحضارية والأديان .....

م٣: الوطن المقدس .....

م٤: التاريخ المقدس .....

الفصل الثالث: الأصول القيمية .....

م١: روح الأمة اليمانية .....

م٢: الخرافة القرشية والأكذوبة الهاشمية.....

م٣ القومية والتراث.....

م٤: المثالية القيمية.....

م٥: عقيدة الفداء القومي.....

الاهـــــــــداء

إلى كل أقيال الأمة اليمانية العظيمة

من حملوا على عاتقهم مسؤولية تحرير أمتهم من الاحتلال الهاشمي الفارسي السلالي البغيض

وإلى كل أفراد الأمة اليمانية من أحفاد

قحطان وسبأ وحمير وكهلان

نهدي هذه المسارات القومية التحررية

سائلين رحمن ذي سماوي أن يفتح لها قلوبكم وعقولكم

آمين

المقدمة

إلى كل الأقيال والإكليلات داخل الوطن الجريح وخارجه، نضع بين أيديكم رؤية التغيير الجذري، لواقع أليم وتخلف مريب يربو على ألف عام من عمر أمتنا اليمنية.

إنها نظرية متكاملة في معالجة إشكالات الأمة اليمنية النفسية والفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية والتنموية.

تنطلق من رؤية الوجود والعالم إلى معالجة المشكلة التاريخية واستعادة الذات الحضارية، واصلاح خلل التراث، وتنقية الوعي الثقافي للأمة، وبناء الروح الثورية التغييرية، وصولاً إلى الثورة والدولة والنهضة القومية بأسلوب فلسفي وروح علمية تتجاوز أشكال الجدل إلى المنطق العلمي المشفوع برؤية التغيير الجذري وتحرير الأمة اليمنية من الاحتلال السلالي الهاشمي والفارسي وأدواتهما التخلف والجهل والصراع.

النظرية القومية للأمة اليمنية نظرية شاملة تسعى للاكتمال المنطقي والعملي لإنهاء مأساة ١٥٠٠ عام من حياة أمتنا العظيمة وتخلفها الحضاري الرهيب، بصورة حركية ديناميكية تنقل الفكر من التجريد إلى المنطق العملي والميدان الاجتماعي.

المؤلف:

د/ علي قاسم البكالي

تساؤلات مفتاحية

ما القومية اليمانية؟

أيها الأقيال المناضلون الذين حملوا همّ وطنهم على أكتافهم، لربما يبادركم البعض بسؤالكم عن معنى قوميتكم التي تؤمنون بها، وتدعون إليها، فأجهروا بفكركم المستنير وبينوا للناس حقيقة دعوتكم المقدسة التي تستهدف بعثهم من أجداث الإمامة والكهنوت، وإخراجهم من ظلمات الجهل والتبعية والوصاية إلى أنوار الحرية والكرامة والاستقلال.

يا أمتنا اليمنية العظيمة:

إننا نعني بالقومية العودة للذات الحضارية اليمانية الأصيلة، والانطلاق منها لاستعادة الهوية وتحرير الإنسان اليمني من العبودية السلالية، وبناء الدولة اليمنية الوطنية، وتحقيق الاستقلال، والسيادة الوطنية، سعياً لاستعادة المكانة التاريخية، والنهوض الحضاري للأمة اليمانية العظيمة التي تعرضت للاحتلال الفكري، والاستغلال السياسي طوال العصور الوسطى، والحديثة، والمعاصرة، بغية استلاب حضارتها المتفردة، وتحويلها إلى التبعية والوصاية، إنها حركة تحرر وطنية تسعى لتحرير الأمة اليمانية من الاحتلال السلالي الهاشمي الفارسي، وانهاء عوامل التبعية والوصاية والاختزال الحضاري، لإطلاق الروح اليمانية الحرة لتحقيق النهوض المستقل واستعادة أمجاد اليمن التليدة.

ما العقيدة القومية؟

لربما يتسائل البعض عن ماهية القومية وماذا تعني، ولكي نجلي الأمور لأمتنا اليمنية العظيمة، ونضعها على بينة من واجباتها المقدسة، نقول:

إنها الإيمان الجازم الذي لا يخالطه شك ولا ريب بأن الأمة اليمانية أمة ذات هوية وحضارة مستقلة ضاربة في أعماق التاريخ، منذ الألف الرابع قبل الميلاد، وأن الشعب اليمني ينتمي إلى تلك الهوية والحضارة العظيمة، وأنه شعب عريق موحد عبر الزمن بهوية ثابتة وجغرافيا موحدة، ولغة واحدة وثقافة متأصلة عبر الزمن، تشكل عوامل وجوده التاريخي وشخصيته الحضارية المستقلة.

الايمان الذي ينتظم كل عناصره بواحدية الوجود واليقين والانتماء والمصير، وينفي عنه كل دخيل وافد من الأعراق والأفكار والعقائد المذهبية والأيديولوجيا التي تنتقص من سيادة اليمن واستقلاله وحرية اليمني وكرامته على أرضه وفي وطنه.

ماذا تعني العقيدة القومية بالنسبة للأقيال؟

نؤمن نحن أقيال اليمن ايماناً مطلقاً لا يخالطه شك ولا ريب بأن القومية اليمنية هي منهجنا الوحيد للخلاص من الاحتلال السلالي الهاشمي والفارسي، وتحرير وعي الأمة اليمانية من الوصاية والتبعية، واكسابها روح الاستقلال والوحدة الوطنية، كأمة فاعلة في التاريخ ومؤسسة للحضارة الإنسانية، يوشك فجرها الجديد أن ينبثق من ركام الألم، ليعانق صهوة المجد، ويؤذن بعودة التاريخ، وعودة سبأ وحمير وتبّع، وإنا لأحفادهم السائرون اليوم على دربهم بإيمان راسخ، ويقين لا ينتقص، عازمون كل العزم، ومتيقنون كل اليقين أن النصر قادم، وأن دورة التاريخ يوشك أن تسطع من أرض اليمن، لحظة تخلص الأمة اليمانية من مخلفات الاحتلال والعنصرية السلالية الهاشمية الفارسية، وإن ذلك لقريب نراه رأي العين، فأخبار التاريخ حقائق الغد، وما ذلك على الله بعزيز.

إننا نؤمن بعدالة قضيتنا وقدسية نضالنا، ومشروعية حركتنا القومية، وأنها جزء من أقدار الله، وإرادته العامة التي وهبت الحرية لكل الخلق، وحررت البشر من العبودية والاستغلال، وكما إن قضيتنا عادلة تتسق مع سنن الله في الكون، وتنسجم وروح التاريخ، وطبيعة الأمم الحرة، فهي أيضاً تنبثق من مبادئ حقوق الإنسان، والقانون الدولي، وتترجم مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها، وهو مبدأ أساسي أقرته كل شعوب الأرض، وإن من حقنا كأمة خالدة مستقلة، أن نحرر بلادنا ووطننا التاريخي، من الاحتلال والوصاية السلالية الهاشمية والفارسية، وأن نعيد بناء أمجادنا الحضارية طبقاً لتجربة أسلافنا الفريدة السامقة، بما يلبي طموحنا، ويحقق كرامتنا، ويمنحنا القدرة على مواكبة العصر، والمساهمة في خدمة الحضارية الإنسانية.

ما أهمية العقيدة القومية للشعب اليمني؟

لقد أثبت التاريخ البشري أن لكل أمة هوية مستقلة تعكس شخصيتها الحضارية، وتمنحها القدرة على المنافسة وتحقيق الذات، كما أثبتت تجارب الأمم في التاريخ أن الروح القومية هي السياج الواقعي للأمة من أي غزو خارجي

عسكري أو ثقافي أو سياسي، فالأمم التي تظل روحها القومية حية وفاعلة تستعصي على الضم والإلحاق، ولا تقبل الذوبان في غيرها، ولا الوصاية ولا التبعية، ومهما تعرضت لغزو أو احتلال أو حروب مفتعلة أو صراعات داخلية سرعان ما تعود لُحمتها التاريخية، وتتحد روحها الجمعية، وتنهض ولو من تحت الركام، فيطاوعها التاريخ، وتختزل مسافات الزمن، فتصل قبل غيرها.

لقد حررت الروح القومية ألمانيا من الاحتلال الأوربي وصراع الهويات الوافدة التي كانت تزيد على عشرين هوية، وجعلتها في غضون نصف قرن امبراطورية عظمى تغزو أوروبا التي كانت تحتلها وتستعبد أهلها، بغض النظر عن النزعة الشيفونية النازية التي لا تستقيم مع روحنا القومية، كما إن الروح القومية الصينية في النصف الأول من القرن العشرين، استطاعت تحرير الصين من الاحتلال البريطاني الياباني، وفي غضون نصف قرن جعلتها ثاني أكبر دولة عالمية بعد الولايات المتحدة الأمريكية.

وكما حررت الروح الأمريكية أمريكا من الاحتلال الأسباني والفرنسي والانجليزي في العام ١٧٨٣م، ومكنت زعيمها المؤسس جورج واشنطن من توحيد قارتين كاملتين في امبراطورية واحدة بروح قومية موحدة صيرت أمريكا سيدة العالم بلا منازع.

إن الروح القومية لكل أمة هي الطاقة الخارقة التي تمنحها القوة الهائلة في تحرير الوطن والعقل معاً، ودفن نوزاع الفرقة، ونزعات التفكك، وتجاوز اسار الزمن، ذلك أن شعور الأمة بذاتها يعيد لها بواعث الطموح والمجد، ويلبسها حلل التحرر من الاستعباد والاستكانة، ورفض الوصاية والتبعية، فهي أمة ذات روح ومجد، ولا تقبل إلا أن تتسنم ذرى المعالي.

إن الروح القومية للأمة اليمانية لهي أقوى وأمتن وأجل وأعظم من أي روح في تاريخ الأمم والحضارات، إنها الأمة المؤسسة للحضارة الأولى قبل التاريخ، حضارة عاد، وثمود، حضارة قحطان بن هود، حضارة سبأ بن يشجب، حضارة التبابعة المتوجين ملوك الأرض قاطبة، من فتحوا بلاد السند والهند واليونان، وأسسوا لنظام عالمي في الزمن الغابر، قاده التُبّع الأكبر ذو القرنين بن ذي مراثد.

ألف ملك متوج خلدتهم الأخبار والآثار وضعوا أسس المدنية والحضارة، وصنعوا دورة التاريخ، وعلّموا البشرية كيف تبني دولاً، وكيف تصنع أمجاداً.

لقد غفت الأمة اليمانية غفوة طويلة مزمنة منذ أن أهملت روحها الحضارية القومية، وقبلت جهلاً أن تكون ملحقة بأفرع قريش من بني أمية والعباس وبني

هاشم، ومذاهبهم السياسية التي استغلت الدين لخديعة اليمنيين، وإيهامهم أن شرط الإسلام أن يتخلوا عن روحهم الحضارية، وهويتهم القومية، فلما صدقهم أجدادنا بجهل، فقدت اليمن صدارتها الحضارية، وانتقل التاريخ منكسراً لأجلاف العرب، ورعاعها، فعادوا يستعبدون اليمنيين بخرافاتهم وصنميتهم تارة، وبالتحالف مع الفرس تارة أخرى، ولقد آن الآوان للأمة اليمانية، أن تستعيد روحها الحضارية، وفطرتها القومية، وأن تعانق المجد، وتطوّع التاريخ لتستعيد حضاراتها ومكانتها بين الأمم.

ما هي أسس بناء العقيدة القومية؟

(الايمان بالفكرة – صف الحواريين أو المناضلين)

أقيال اليمن المناضلون، أيتها الأمة اليمانية العظيمة

إن عظمة الشيء من عظمة أهدافه، وكمال الفكرة من نبل غاياتها، وإننا ندعوكم إلى مجد تليد، ورخاء مديد، وحضارة تنافسون بها أمم الأرض.

إن روح القومية التي عانقت أسلافنا بناة الحضارة روح مقدسة، انسلت من دعوة نبينا هود (ص) ورسالة ابنه قحطان التاريخية التي صنعت أول مجد للبشرية، وهي ذاتها الروح القومية المقدسة التي حدت بجدنا الملك التبع السمطاط بن الهميسع ليستقبل دعوة إبراهيم (ص)، ويأمر كل ممالك الأرض بالحج إلى البيت الحرام استجابة لنداء إبراهيم، وهي ذاتها الروح القومية التي حركت ملوك حِميَر وأقيال اليمن للذهاب إلى المدينة لنصرة دعوة النبي الكريم محمد (ص) والانطلاق لنشر رسالته في العالمين حتى جعلوا من الإسلام دولة امبراطورية.

لقد حركت الروح القومية المقدسة أجدادنا الأُول ليصنعوا التاريخ العظيم في كل عصر، وفي كل زمن، وأن يندمجوا بكل الرسالات السماوية لتحقيق الانتشار السريع، والسلطان الأكبر.

لقد تعرضنا كأمة ذات حضارة ومجد وتاريخ ونضال وبطولة، للخيانة والخذلان والاستغلال المشين، إذ سطى على المجد من ليس له بأهل، ولا لحسبه به صلة، فسرق نضال الأجداد العظماء، وبنى عليه سلطان قريش وبني هاشم العنصري السلالي، ثم ارتد هذا الساطي المتنكر ليغزو أرضنا، ويمزق شمل أمتنا، ويدمر حضارتنا ويطمس هويتنا، خادعونا بالدين السياسي الزائف، والعنصرية المقيتة، والجهل الرهيب، ليبدلونا بحضارتنا تخلفاً وتبعية، وبثقافتنا خرافة وضلالة، وبهويتنا، سلالة عنصرية وطبقية بغيضة.

وقد شاءت الأُقدار أن تتبدد الخرافة ويسقط الوهم، وتنتهي المتاجرة بالدين، وأن تبعث من الأجداث أرواح التبابعة العظماء لتعانق روح القدر وإرادة الله من جديد، فتنهي هذا الواقع البئيس، وتعيد بناء أمجاد الحضارة والتاريخ كما أراد الله.

إن روحنا القومية اليمانية لهي روح الله وإرادته المنبعثة في وجداننا وضمائرنا، تحدونا لتحرير وطننا المقدس من دنس الوثنية الهاشمية التي جعلت نفسها نداً لله في ألوهيته، وقرينة لقرآنه، محرفة دينه وتعاليمه لتتساوق وأطماعها الاستعمارية.

وإننا في هذا الدرب القويم، والطريق المستقيم، نؤمن بقداسة فكرتنا، ومشروعية نضالنا، متسلحين بطاعة قيادتنا، ووحدة صف نضالنا الوطني، داعين كل اليمنيين إلى الايمان بما نؤمن به، من قداسة الفكرة، وايمان الحواريين.

يا بني قومنا: إن دعوتنا القومية تريد أن تخلصكم من الاحتلال الهاشمي، والاستعباد السلالي العنصري، وتحرركم من الصراعات والحروب التي تطحن أرواحكم، وتنهي خيراتكم، وتغتال طموحاتكم. تلك الحروب والصراعات التي يفجرها في كل جيل هؤلاء المحتلون الغزاة ليسرقوا حياتكم وأموالكم، ويبقوكم قيد الصراعات والخرافات والتخلف والجهل.

نريد أن نستعيد وطنكم الآمن وحياتكم المستقرة، ودولتكم المستقلة، وحضارتكم المزدهرة، وبالمجمل نريد أن نحقق مراد الله، ووالله ما استضعف شعب ولا قتل ولا ظلم ولا عذب ولا شرد وهجر ولا نهب ولا أهين مثلكم يا شعبنا وأمتنا المقهورة التي هيأ الله بقدرته روحنا القومية من جديد لتحريرها، واستعادة كرامتها، وبناء أمجادها، وتبديل خوفها أمناً، وفقرها رخاءً، وتشتتها وحدة وقوة.

هذه هي فكرتنا القومية القدسية التي ندعوكم لتسعدوا بها، وتتحدوا خلف ظلالها، في صف واحد برمزية قومية موحدة، كحواريي عيسى، وصحابة محمد (ص)، فما من فكرة مقدسة، إلا ولها حواريون وأتباع، يؤمنون بها، ويضحون من أجلها، متسلحين بالايمان الذي لا يعرف الشك، والإقدام الذي لا يعرف التردد، والثقة المطلقة التي لا تقبل التوجس، وإن الله على نصرنا لقدير.

الفصل الأول: الأصول الكونية

م١: الله الواحد

م٢: رؤية الوجود

م٣: الرسل والأنبياء

م٤: الدين والإسلام

م١: الله الواحد

تأسس الوجود التاريخي للحضارة اليمنية القديمة على أساس الاتصال المتين بين السماء والأرض، بين الحقيقة الكونية المطلقة، والإنسان الأول صاحب الرسالة التاريخية المستفادة من وحي السماء وعمق التجربة، فالله الرحمن حقيقة مطلقة في وعي الإنسان اليمني عبر التاريخ، فهو الإنسان الذي لم يعرف الأصنام ولم يعبد غير إله السماء بتجلياته الكبرى، إله الشمس وإله القمر وإله النجوم وإله الكواكب.

إن ثقافة الإنسان اليمني منذ لحظة وجوده في التاريخ القديم، مبنية على معرفته الكاملة بالله الخالق، ذلك أن اليمنيين ليسوا كغيرهم من أمم الأرض المتلاحقة التي غرقت في الماديات والجدليات، بل هم أبناء أنبياء من اللحظة الأولى، فهم ينحدرون من سلالة نبي الله سام بن نوح، وأرضهم مسكن نوح وسام، وفيهم نبي الله هود -عليه السلام- نبي قوم عاد، وقوم عاد في التاريخ والأديان ورثة قوم نوح، وهم بإجماع كل المؤرخين والمفسرين أول حضارة في التاريخ البشري بعد طوفان نوح – عليه السلام- ومساكنهم في اليمن من حضرموت، وإذاً فهم أجدادنا اليمانيون القدماء، أول من أسس حضارة بشرية على وجه الأرض، وأول من اتصل بالسماء من الحضارات البشرية، وفيهم ومنهم بعث نبي الله هود، ومن نبي الله هود جاء قحطان، وولد ثلاثة عشر من أبنائه، ومن أولاد قحطان انسل اليمنيون وتوزعوا في جزيرة العرب، وأطلق عليهم عرباً نسبة لأبيهم يعرب بن قحطان، ومن يعرب نسل سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وهو مؤسس أول امبراطورية في تاريخ الجزيرة العربية والعالم.

حتماً لقد بنيت أول حضارة في تاريخ البشرية على أرض اليمن، قام عليها أبناء أنبياء، وورثة دين سماوي توحيدي، يتصل بالسماء دون واسطة، ويعرف عبادة الله الواحد دون كهانة، فلا تكاد تجد في تاريخ اليمنيين أصناماً تعبد كغيرهم، بل هم أصل التوحيد ومنبعه، وحاملو رسالته إلى البشرية الأولى، ولقد حاول بعض المغرضين فيما تأخر من التاريخ بعد الإسلام، وصم اليمنيين بالوثنية دون حجة، ظاناً أن النحوت التاريخية الحضارية المبثوثة في كل مناطق اليمن، المخلدة لذكرى ملوك سبأ وتبع وحمير كغيرها من الأصنام التي اتخذت في الشام ومكة للتقرب والعبادة، في حين أن الحقيقة الثابتة عبر تاريخ الأمة اليمانية، أنها أمة لم تسجد لصنم قط، ولم تعظم سوى إله الكون الواحد، دون أن تشرك به معه أحد، لا من بشر ولا حجر.

إن علاقة اليمنيين بالله الخالق بنيت على أساس من الاتصال بالملأ الأعلى عبر سلسلة من الأنبياء، وثقافة متصلة من التوحيد والإيمان، واستجابة تاريخية لكل صوت يأتي من قبل السماء، سواء كانت هي المقصودة به أم غيرها، فلم يدون التاريخ لأمة من الأمم تعلقاً بالله الواحد وأقدراه، وايماناً مطلقاً به في كل دقائق الحياة كإيمان اليمنيين، وفي الوقت الذي كانت أمم الأرض ترتد إلى الإلحاد والوثنية، نتيجة انقطاع فترات الرسل، كانت الأمة اليمانية تتجه ببصرها نحو السماء، فتعبد الإله (رحمن) كما تحكي ذلك النقوش المثبتة، إذ تشير إليه النقوش بأنه «رب السماوات والأرض» الذي له ملك السماوات والأرض.

لقد كان دين التوحيد في اليمن القديم يمثل محور الحياة للناس، فقد ربط اليمني القديم كل مجريات حياته بالإله الذي كان يعتقد بأنه معه في كل مكان، وأن وجوده لا يقتصر على المعابد فقط، حيث يتضح أن الدين في الأمة اليمنية القديمة ما قبل وبعد التاريخ، لم يكن وثنياً، فاليمني القديم لم يجسد الإله بأي شكل من الأشكال الصورية أو التماثيل كما فعل غيره، بل عبد بشكل مباشر رحمن ذي سماوي، وبدون واسطة.

لقد أثبتت الدراسات التي أجراها عدد من الباحثين في النقوش والرموز الدينية اليمنية أن ديانة اليمن القديم كانت ديانة سماوية توحيدية، يُرجح أنها كانت من بقايا ديانتين سماويتين هما: الصابئة المندائية، وهي ديانة نبي الله نوح التوحيدية، وديانة نبي الله هود التوحيدية - أيضا- وهي الديانة التالية التي بعثت خصيصاً لليمنيين من ورثة قوم نوح، يضاف إليهما ديانة نبي الله إبراهيم الحنيفية التي عاصرت دولة التبابعة في عصور لاحقة، أما تعدد مسميات الإله في الدويلات المتأخرة فيما قبل الميلاد، فإنه تعدد لمظاهر الإله الواحد، بأسمائه وصفاته، فيقال إله الشمس، وإله القمر وإله النجوم، وإله الكواكب، وإذاً فإننا نجزم أن أمتنا اليمنية العظيمة ثابتة على توحيدها لله الواحد منذ نشأتها الأولى، وحتى أخر النبيين محمد(ص).

عرف اليمانيون الديانة التوحيدية قبل أي ديانة أخرى تصلهم، قبل اليهودية والمسيحية والإسلام، وهي الديانة التي اسماها الباحثون الغربيون مؤخراً بالتوحيد الحميري مثبتين لها خصائص لا توجد في أديان أخرى كما جاء في كتاب بيستون ا.ف.ل ص ١٥٢، وكانوا يقيسون مدى صحة أي ديانة أخرى تأتيهم إلى عقيدتهم التوحيدية الخالصة، فأيما ديانة تحمل جذوراً من الوثنية رفضوها، وكان الإله رحمن وحده الذي يتقرب باسمه اليمنيون في صيغ التعبد، غير مقرون بآلهة أخرى، ولا حتى أقوام آخرين، كالمسيح أو رب اليهود، ولا شفعاء وزلفى كأصنام قريش فيما تأخر من التاريخ.

إن هذه الأمة التي اكتشفت بفطرتها العلاقة بين عوالم الوجود والطبيعة، أو مطلق الوجود والوجود، أو جوهر الوجود وعرضه لهي أمة عظيمة متفردة لا نظير لها في التاريخ، وإنها لسابقة إلى المعرفة قبل غيرها من الأمم، فإذا كان العقل الفلسفي المعاصر لا يزال يناقش نظرية الوجود وعلته، مفترضاً ما يطلق عليه ب (مادة الوجود الأولى والانفجار العظيم)، فإن اليمنيين كأول أمة وحضارة في تاريخ البشرية قد فصلوا في هذه التساؤلات المعرفية قبل كل الأمم، في عصور ما قبل التاريخ، فقرروا بعلم ودراية أن مرجع الوجود المادي واللامادي إلى خالق أوحد، وصانع حكيم، قائم في سماواته، رحمن على خلقه.

ولتجسيد العلاقة الروحية بين الإله الواحد (رحمن) والأمة اليمنية المتصلة به عبر سلسلة أنبياء من نسل قحطان بن هود، ابتنى اليمنيون المعابد أو بيوت التوحيد قبل غيرهم من أمم الأرض، فكانت المعابد تمثل رمزاً مقدساً من رموز الدولة والحضارة، تقام فيها طقوس الاتصال بين السماء والأرض دون وساطة، كما تقام فيها شعائر التعبد والوحدانية، كطقوس الصلاة والحج والنذور بالتقرب بالإنفاق للفقراء، وقد كان معبد (أوام) أول معبد توحيدي في تاريخ البشرية، وهو المعبد الرئيس للإله (ألمقه) إله القمر (بمعنى رب القمر)، وكان الناس يحجون إليه من مختلف أنحاء الجزيرة العربية، وتحكي النقوش أنه كان لأجدادنا القدماء طقوساً تعبدية تدعى (طوف) أو (طواف) حول المعبد، لها علاقة بالطهارة الروحية، يعقبها اعتراف بالذنوب، وتقديم القرابين التي غالباً ما تكون من حيوانات مفضلة للإله؛ كالوعلان والغنم والخراف والثيران، وهي الديانة التي توارثها العرب بعد ذلك عند مبعث نبي الله إبراهيم وبناء الكعبة.

ولم يتوقف أجدادنا القدماء عند نظرية الخلق وعلته، وحقيقة الذات الكلية المسيرة له، وطبيعة الاتصال بين عوالم الوجود، أو بين الخلق والخالق، بل تعدوا ذلك إلى اكتشاف وظيفة الإنسان في الوجود المادي والروحي معاً، فأدركوا أن غاية الوجود ليست عبثاً ولا عدماً، وإنما هي وجود إعمار للكون، وبناء لقوانين الوجود، فكانوا أول من أسس حضارة معرفية على وجه الكوكب، وأول من نقل المعرفة والخبرة لأمم الأرض، لتنتقل البشرية من حياة الرعي والبداوة، إلى مجتمع المدنية والحضارة.

إن الأساس الخالد الذي بنى عليه اليمنيون الأُول وجودهم في التاريخ البشري، هو الإيمان بالله الواحد القدير الرحمن، والإيمان بأنهم الأمة المختارة لتجسيد هذا الإيمان في واقع الحياة البشرية، في صورة اتصال روحي وحضاري فريد، يؤهلهم لحمل الرسالتين لعوالم الأرض، رسالة التوحيد، ورسالة الحضارة.

إن ظل الإيمان بالله القدير في فلسفة الوعي التاريخي للأمة اليمانية، هو الوعي بالذات القومية الفاعلة في التاريخ البشري، المحققة لغاية الوجود وعلة الخلق على الحقيقة، لا في صورة التعبد والاتصال بعالم الروح فحسب، ولكن في ترجمة هذا الإيمان إلى حضارة قومية تنقل البشرية من وضع التخلف وحياة الغابات والتبدي، إلى مجتمع المدنية المثالية القائمة على الوعي الاجتماعي التعاوني، والنشاط الجمعي، والفكر المعرفي القائم على الاتصال الروحي والبحث المادي في أسباب التطور ووسائل النهوض البشري.

لقد شكل اكتشاف الفكرة القومية اليمانية في بدء التاريخ، أول رابط ذاتي في خط الاجتماع البشري الواعي، ولقد كان من حظ الأمة اليمانية أن تكون هي البصمة الأولى في تشكيل الوعي القومي الأول في تاريخ البشرية، وفي بناء تجربة الأمة الرسالية المبتعثة بالهدايتين الروحية والحضارية لأمم الأرض وحضاراتها، حيث تؤكد النصوص القرآنية، كما تؤكد المرويات والنقوش، أن مصطلح قوم بالمعنى التاريخي، ظهر لأول مرة في التاريخ لدى قوم نوح ثم قوم عاد ثم قوم ثمود ثم قوم تبع، وهذه الأُقوام بالتسلسل هي الأقوام اليمنية الأولى المؤسسة للدولة بمعناها الاجتماعي والسياسي، فيما قبل التاريخ، وصولاً إلى الشكل الامبراطوري في عصر التبابعة، ومن بعدها فيما بعد التدوين التاريخي، جاء قوم فراعنة مصر، وقوم بابل وآشور ثم قوم موسى وقوم عيسى...إلخ.

ومما لا شك فيه أن القومية اليمانية الأولى في التاريخ كانت انعكاساً لرسالة التوحيد الإلهية التي جاء بها أبوهم هود - عليه السلام- كيف لا والقرآن يسميهم قوم عاد ويصف النبي هوداً بأنه أخوهم مرسل إليهم، ثم يسمي سورة كاملة باسم حضارتهم الإمبراطورية الأولى المؤسسة للتاريخ البشري، الوارثة لأمجاد قوم عاد، امبراطورية سبأ، يفرد لها سورة كاملة هي سورة سبأ، وكأنما يقول لهم هذا شاهدكم التاريخي من عند الله أنكم أول حضارة في التاريخ ابتنت دولة قومية، على أساس من الاتصال الروحي الميتافيزيقي بعالم ما وراء الطبيعة، تطاولت لآلاف السنين، ونقلت الإيمان والتجربة لغيرها من الأمم، حتى خلقت حضارات قومية أخرى منافسة لها، كالرومان، فلا يقابل سورة سبأ في القرآن إلا سورة الروم، ولا يماثل مقام امبراطورية سبأ الكونية، إلا مقام إمبراطورية الرومان التي استلمت ريادة العالم بعد تراجع قوم سبأ وتفرق أيديهم.

وإذا كانت امبراطورية سبأ قد ابتنت أمجادها الكوكبية في الأرض على أساس الرسالة الكونية السامية المؤتلفة من عالم الروح والمادة، والايمان والمعرفة، والتوحيد والمدنية، ناشرة قيم العدل والمساواة والكرامة الإنسانية التي وصفها القرآن بالخيرية في حديثه عن قوم تبع، فإن امبراطورية الرومان اتخذت من المادة

والقوة أساساً لوجودها الحضاري ونزعتها المركزية، غير آبهة بالفكرة الروحية ولا بالقيم التوحيدية، وحينما اضطرت للاندماج برسالة عيسى الأخلاقية بعد ثلاثة قرون من بعثته، جعلت المنفعة المادية أساساً للقيمة الغيبية، فقالت ان الإله ثالوث مكون من الأب والابن وروح القدس، وبذلك عطلت قيمة التوحيد والعالم الغيبي، وأقامت بدلاً عنه عالم المادة، ولعل في الصورتين تجسيد واضح لحقيقة الروح الحضارية المركزية بين الشرق والغرب، فإذا كانت حضارة الشرق المركزية الأولى(امبراطورية سبأ) انبثقت من روح قومية متعالية اندمجت مع رسالة كونية سماوية، مكونة رسالة حضارية أخلاقية للعالمين، فإن حضارة الغرب المركزية ولدت من فكرة القوة ورغبة السيطرة المادية، مؤسسة لنزعة استعمارية تاريخية ستظل عنوان الروح الغربية في كل جولة من جولات التاريخ، وشتان بين رسالة كونية أخلاقية، وحقيقة مادية استغلالية.

هكذا إذاً علّم اليمنيون البشرية منذ فجر التاريخ فكرة الوجود، وحقيقة الخالق، ونشروا رسالة الحضارة كما نشروا قيم التوحيد، وظلوا يقودون البشرية إلى خيريتها وإنسانيتها السامقة قروناً متطاولة، وكلما رأوا نوراً من رسالة سماوية جديدة استبقوا إليها، وتجددوا بها، وصاروا رسلها للعالمين، فلما عثر بهم ركب الزمن، وألجمتهم سنة التداول البشري بين الحضارات الكونية الصاعدة، ضعف سيرهم، وخفت نورهم، وجاءهم من يدعي تعليمهم الدين، صانعاً من سلالته وساطة زائفة بينهم وبين الله (الرحمن ذي سماوي) الذي آمنوا به قبل آلاف السنين، ولا زالوا يجددون إيمانهم به مع كل رسالة سماوية، ومع كل رسول يبعث في الكوكب.

هذه هي حقيقتنا القومية عبر التاريخ، توحيديون، رحمانيون، إنسانيون، رسل حضارة، بناة مجد، دعاة عدل، قادة خير لأمتنا وللإنسانية، نرفض استغلال الدين لمآرب سياسية، ونَهَبُ العالم روح السلام والطمأنينة، لم يعرف آباؤنا بناة الحضارة الأولى وثنيةً ولا استبداداً باسم الله والدين، طوال تاريخهم الممتد لسبعة آلاف عام، ولم يعرف موطن الأجداد عقائد الضلال ومسالك الاستعباد إلا بعد أن تسربت إلينا في مرحلة سكون حضاري، وخفوت قومي، دعوةُ الهاشمية العنصرية المستعلية، تدعي أنها من نسب مقدس، وأن تقديسها وطاعتها جزء من التوحيد والدين، وأن لها حق الوساطة بين اليمنيين وخالقهم، حينها خيم الجهل على اليمن العظيم، ونسج الليل خيوطه في أرجاء البلاد، وتبدل شمس الحضارة عتمةً، ووهجها التاريخي غيماً وظلمة، وحقيقتها الروحية كهانةً ودروشة، وتوحيدها الرحماني، صنميةُ وتقديساً لسلالة الدجل الهاشمية، أحياءً وأمواتا.

استغل هؤلاء الدجالون استراحة اليمنيين من مهمة التاريخ، وخفوت الروح القومية بعد كفاح قرون متطاولة، فهجموا على الأمة اليمانية في لحظة سبات وتراجع، وأخذوا ينسجون على أحلامها خيوطاً من الجهالة والتقديس لسلالتهم العنصرية، مستغلين حالة التراجع الحضاري، والانكماش الروحي، طامعين في تحويل اليمن إلى وطنٍ قومي لسلالتهم، وتحويل اليمنيين ملوك الأرض إلى خدم وعبيد لغبار الزمن، من لا يعرف التاريخ وجوداً ولا نفعاً، وتحت خدعة أنهم يمثلون الله والمقدس، وأنهم وكلاء حصريون للدين والرسالة، وهي الخدعة التي انطلت على أمتنا في مرحلة سبات عميق، وقد آن الأوان لفجر أمتنا اليمانية أن يسطع من جديد، وما نداء البعث القومي المجرد من كل وساطة وكهانة، المنبثق من روح الأمة اليمانية، وعقيدتها التوحيدية، ومهمتها الرسالية، إلا سنة من سنن العود الحضاري المتجدد، سيراً على نهج الأجداد الأول، بناة الحضارة وصناع المجد التليد، ولسوف تنقشع الغمة عن أمتنا عما قريب.

م٢: رؤية الوجود

تخبرنا الأحفوريات والنقوش أن ثقافة آبائنا قدماء اليمنيين فيما قبل التاريخ نشأت على أساس من التوازن المتين بين العالمين الروحي والمادي، الحسي والغيبي، حيث نرى الإله الواحد (رحمن) الذي يتوجه إليه الشعب بالعبادة يرضى عن الأقيال الذين ينقادون للملك، ويرحم الشعب الذي يستجيب للقانون، وفي الوقت الذي يتجه المزارع اليمني القديم لحقله ومزرعته، يذهب إلى المعبد لتقديم النذور للإله الذي منحه الرزق والبركة، ويبني السدود العظيمة التي تحجز المياه الوافرة، وتساعد على زيادة المحاصيل والإنتاج وتقوية مركز الدولة الاقتصادي داخلياً وخارجياً، ويطلب من رحمن ذي سماوي حماية هذا الإنجاز الحضاري ومباركته.

إن مفهوم الوجود وسؤاله وما هيته من المفاهيم الأولى التي واجهت الإنسان في لحظة بناء ذاته الأولى، كذاتٍ عارفة وقادرة على فهم الأشياء وطبيعتها، وفهم طبيعة الوجود العام، وكيفية استغلاله لتحقيق الوجود الإنساني الخاص في العالم، وإذا كانت فلسفة الوجود وماهيته وأقسامه قد نشأت في التاريخ كسردية مكتوبة، وأفكار للمعرفة المتداولة في العصر اليوناني المتأخر جداً عن الوجود الحضاري للإنسان الأول في التاريخ، فإن قدماء اليمنيين قد أكدوا ذاتهم المستقلة عن الوجود الطبيعي من خلال تأسيس وجود حضاري قائم بذاته، يستخدم الطبيعة وإمكاناتها كمواد أولية للعقل الواعي بحقيقة الوجود وصوره وتشكلاته الحسية، وكيف يمكن تحويله من شكل إلى آخر عبر الوجود الذهني المجرد.

ولعل في اكتشاف اليمنيين الأول لفكرة القوة من خلال استخراج الحديد من الجبال وصناعة آلات الحرب منه كما يوضح ذلك القرآن الكريم في قصة قوم عاد، حيث أثبت أنهم اتخذوا مصانع لإنتاج أدوات القوة المادية، يطلبون من ورائها الخلود والقوة الأبدية، عبر الغزو العسكري لأمم الأرض والبطش بها، وبناء الحصون المرتفعة في الأودية والصحاري لحيازتها، دليل واضح على أن الاندفاعة الأولى لقدماء اليمنيين (قوم عاد) دفعت بها في التاريخ فلسفة القوة، وأنهم اكتشفوا فلسفة القوة من خلال الوجود الطبيعي وممكناته، فحولوا الوجود الحسي إلى قوة تاريخية، استطاعوا من خلالها بناء أول حضارة تبني القصور والمدن المعجزة في التاريخ، هي حضارة إرم ذات العماد، أي ذات الأساطين المرتفعة التي لم يكن العالم قد عرفها من قبل، ولم يخلق مثلها في الكوكب.

وإذا كان قوم عاد بناة الحضارة الأولى بعد قوم نوح قد بلغوا من تطويع العالم المادي الحسي مستوى لم يبلغه غيرهم من قبلهم ولا من بعدهم، فإنهم دون شك لم يحققوا هذا التطور المادي المحسوس في بناء المدن ذات القصور المرتفعة إلا

بعد أن بلغوا مستوى متقدماً من الفكر العلمي والمعرفة المتقدمة، ذلك أن التصور الذهني للعالم المادي بخصائصه وتحولاته المجردة، يسبق تحولاته في الواقع الحسي المشاهد.

ولربما يمكن الافتراض بصحة نسبية لمقولة افلاطون عن عالم المثل التي كان يعني بها وجود عالم ما قبل العالم الحسي أو المادي، يكون فيه الإنسان على علم بجميع العلوم والخفايا، وعند ذهابه إلى العالم الحسي (أي حينما يولد) يكون قد نسي كل هذه العلوم، وما عليه إلا أن يتذكرها في العالم الحسي، وإلا كيف يمكن تفسير اكتشاف قدماء اليمنيين من قوم عاد لفكرة المدينة، والقصور المتطاولة، والأساطين التي تزين تلك القصور من الذهب والفضة دونما سابقة لمدنية يقبسون منها الفكرة، وإذاً لربما أرادوا بناء مدينة تشبه الجنة التي أخبرتهم عنها العقائد الموروثة عن ديانة أبيهم نوح التوحيدية، استلهموا الفكرة من العالم الميتافيزيقي، وأرادوا تجسيدها في عالم المادة والحياة الطبيعية بأدوات الطبيعة وإمكاناتها التي استطاعوا تحويلها من فكرة مجردة عن المادة إلى تحولات حسية لخصائصها وتركيبها المادي.

لقد كانت تجربة قوم عاد من قدماء اليمنيين محاولة لتجريد العالم الميتافيزيقي من فاعليته في رؤية الوجود، بصناعة وجود حسي مماثل له، غير أن إيغالهم في فلسفة القوة المادية كسبيل للبطش والسيطرة، كاد ليصنع جبروتاً في لحظة أولية يبعد البشرية عن مفهومها الإنساني العام إلى ثقافة القهر والتغلب، ومنع أي كيان اجتماعي ينشأ لغيرهم من الأقوام الأخرى على وجه الأرض، بل والبطش به حتى افنائه، وهو ما يمكن أن يوقف التطور البشري في لحظات تخلقه الأولى، فكان هذا سبباً كافياً لاصطدامهم بسنن التاريخ، ووقوعهم في دائرة الهلاك الكوني، أو بالأصح الانهيار الحضاري بالأسباب الطبيعية للمادة وتفاعلاتها الفيزيقية.

لكننا نجد جولة من النضج الكبير المتسق مع سنن الطبيعة وحقيقة الوجود الكوني والإنساني ماثلة في تجربتي قوم سبأ وقوم تبع التالية لقوم عاد، حيث يتجسد في التجربتين عالم المثل وعالم الطبيعة، ويتوازن عالم الحق والخير مع عالم القوة والملك، والرسالة الكونية مع الرسالة الحضارية، فتغدو التجربة القومية لقوم سبأ وتبع روحاً إنسانية، ففي الوقت الذي تحقق الأمة اليمانية ذاتها الحضارية، تقدم خدمة للإنسانية من خلال نقل التجربة، ونشر المعرفة والدفاع عن قيم العدل والمساواة والخير بين البشر.

إن مركب الروح القومية اليمانية الأولى خلق في التاريخ كناتج معرفي ايماني لحقيقة الوجود المندمج بصورته الحادثة وحقيقته الكلية المطلقة، وبطبيعته

الحسية والذهنية، والماورائية والمادية، والغيب والشهادة، والحضارة والروح، والدنيا والآخرة، وإننا لنلمس في ثقافة أمتنا اليمانية القديمة حضوراً قوياً لعالم الغيب يضاهي الحضور المادي لعالم الحس، فكما أن آباءنا الأول يخلدون حضارتهم ومعارفهم وبطولاتهم وملوكهم بالنقوش و النحوت المادية للأجيال إلى ما لا نهاية، كان لديهم عقيدة مطلقة وإيمان راسخ بوجود حياة أخرى، وخلود بعد الممات، ولذلك عمدوا لتحنيط ومعالجة الجثة قبل أن تدفن وتوارى في التراب، أو توضع في أرفف المقابر الصخرية، على أساس أن يبقى الشكل العام للميت ليتم التعرف عليه عند عودة الروح إليه في قبره، وهكذا تتضافر رؤية الوجود المادي واللامادي في حياة الإنسان الدنيوية والأخروية فتبدو كفلسفة واحدة.

وتبرز نظرية الوجود بقسميه المادي والماورائي في ثقافة الأمة اليمانية من خلال الموروث الحضاري المتكامل في صورة العمران والروح، فالمعابد التي تتصل بالسماء من ناحية العبادة والتوحيد، تتصل من جهة أخرى بالدولة إذ تعتبر معابد رسمية للدولة، وتُقدَمُ فيها طقوس الولاء للملك التبع أو المكرب السبئي، والملك نفسه يزور المعبد قبل كل غزوة يغزوها يقدم الابتهالات والدعوات لـ (رحمن ذي سماوي)، طالباً منه النصر والظفر، ويعود بعد كل غزوة ونصر ليقدم الشكر والنذور للإله الذي أمده بالقوة والنصر.

وهذه الصورة تعكس الاتصال الوثيق بين المظهرين الروحي والمادي للحضارة اليمنية والروح القومية، فهي من لحظتها الأولى تقيم وعيها على تصورات منطقية للعالمين الحسي والذهني، والمادي والغيبي، في توازن فريد يكاد يكون الأكثر نضجاً في كل الحضارات البشرية القديمة، وهذا النضج المتوازن بين عالم الوجود والطبيعة هو أساس البناء الحضاري المتجدد للروح القومية اليمانية في كل زمن، فالأمة اليمانية في تاريخها الطويل تدرك أن العالم سواء كان أزلياً أم أبدياً، متناهياً، أم غير متناهٍ، هو عالم غير موجود بذاته، فهو قائم على سلاسل لا متناهية من الموجودات، وهذا اللاتناهي يحمل في طياته دليل النقص، ويعطي صورة لوجود آخر خارج وعي الإنسان، تكتمل في صورة الوجود الكلي والأزلي، وإذاً فإن الإيمان بحقائق الروح من طرائق الوحي، يكمل الإيمان بقوانين المادة وحقائقها من طرائق التجربة والخبرة، وكلا المسلكين يوصل في نهاية الأمر إلى حقيقة الغاية من وجود الإنسان، المتمثلة في بناء حضارة تكاملية قائمة على الوعي بالذات والايمان بالخالق الأوحد.

لقد انبثقت الروح الحضارية في الأمة اليمانية في عصور سبأ والتبابعة، من حقيقتين ثابتتين، حقيقة الله الخالق الأزلي بوجوده الكلي القديم خارج حدود الزمان والمكان، وما يتصل بذاته من خصائص الديمومة والثبات والكمال والخلق، وما يتصل بفعله من نظرية الوجود الحادث وتحولاته وخصائصه المادية والروحية،

وهذه هي الحقيقة الأولى للروح اليمنية عبر التاريخ، وأما الحقيقة الثانية فهي حقيقة الذات القومية الحضارية الفاعلة في الذهن والمعرفة والتاريخ في حدود الزمان والمكان، ومن الحقيقة الأولى تشكل التصور الديني والفلسفي للحياة الأبدية، وأقيمت الحياة الروحية كاتصال وثيق بين إنسان الوجود الممكن، ومصدر الوجود الواجب، وهو الله تعالى، وشكلت المعابد وما يتصل بها من طقوس ونصوص دينية وعقائد تعبدية وابتهالات وقربات ونذور، تمثلات حسية للوجود الروحي كوسيط بين الوجودين، الأبدي(الله) والحادث (الإنسان والطبيعة).

ومن حقيقة الذات القومية تشكل التصور التاريخي لفلسفة التاريخ والحضارة الإنسانية، وانبثقت التجربة الحضارية الأولى في صورة اندفاع قومي لتطويع التاريخ لإرادة العقل الواعي، ومن لحظتها صار التاريخ عقلاً فاعلاً في الزمن والمكان، وإرادةً حرةً تصنع الوجود القومي الفاعل في التاريخ، كما تصنع مستقبل الحضارة البشرية.

إن رسالة الروح القومية اليمانية في التاريخ رسالة عقل وإرادة، مجردة من خوازل الخرافة والاتكال والتسليم، إنسانية خيرية، خالية من نوازع الأنا والشر، وعقد الاحتكار والاستغلال، إنها رسالة تحرر للأمة اليمانية والبشرية من الاستبداد والاستعباد بكل أشكاله وألوانه، رسالة الوجود الحضاري القومي المستقل والمتعاون، دونما استغلال أمة لأمة أخرى، أو وصاية شعب على شعب، أو شخص على شخص، فالناس والمجتمعات والأمم متساوون في الحقوق الطبيعية، ولدوا جميعاً من أب وأم، ومن جنس بشري واحد، وعلى ظهر طبيعة وجودية واحدة، ونشأ لكل شعب في التاريخ وجود مختلف زماناً ومكاناً وبيئة، ومن حق كل أمة أن تحفظ وجودها القومي في التاريخ والواقع، على الوجه الذي يحمي شخصيتها الحضارية من الذوبان في غيرها، أو التحلل من كيانها التاريخي.

م٣: الرسل والأنبياء

نشأ الوجود التاريخي للأمة اليمانية على أساس الاتصال الوثيق بالسماء، والتفاعل المعرفي مع عناصر الوجود والطبيعة، فكان إيمان آبائنا الأول بذاتهم الحضارية منبثق من إيمانهم بالوجود المطلق والقوة العلوية، وأن هذه القوة المسيرة للكون تعرف عن نفسها بطريقة الرسل، كما تتعرف إليها الأمة عن طريق العقل والنظر، فكلا الطريقتين جائزة ومعتبرة، فمن الطريقة الأولى تشكل الإيمان بكل الرسل والأنبياء كمبلغين ومعرفين عن الله الواحد ذي سماوي، ومن الطريقة الثانية تشكل السبق الحضاري الموصل إلى معرفة الوجود وأصول الموجودات وعللها.

وإذا كانت محكومات العقل المعرفية تستطيع اختبار عالم الحس والمادة واكتشاف حقائقها وموجوداتها وخصائصها وتحولاتها الفيزيقية، فإن عالم الماوراء يظل بعيداً عن ممكنات الأحكام العقلية وقياساتها النظرية والتجريبية الحسية، وهو ما لا يمكن التوصل إليه إلا بالإيمان الإجمالي بجوهر الوجود وعلته ومصدره، أو ما أخبر به الإنسان عبر وساطة رسل وأنبياء، وهو اخبار على سبيل المجاز العقلي، لأن حقائق الأشياء لا يدركها الوعي الذاتي بالوصف المجرد، دون تكوين صورة حسية مفهومة في الذهن، أو التسليم بفرضية المثل الأولى للبشرية، ومن هنا أدرك اليمنيون الأول أن وظيفة الرسالات السماوية ليس إلغاء العقل، وتلقين الإنسان معلومات ليست من اكتشافه، أو هي خارج نطاق مدركاته الحسية والذهنية، وإنما التعريف بدلائل الإيمان الإجمالي بعالم ما وراء الطبيعة، ومسالك التعرف إلى ذلك الوجود الغيبي بخلق تصورات ذهنية قابلة للاختبار والتيقن المعرفي، ومن هنا كان إيمان اليمنيين بالرسل والرسالات أحد مسالك الروح القومية اليمانية في تحقيق الوجود المعرفي والتاريخي معاً.

لقد شكل الإيمان بالرسل والأنبياء أحد الأصول الجذرية للثقافة الحضارية للأمة اليمنية منذ فجر التاريخ، فهي تنحدر كأمة سابقة في الوجودين البشري والتاريخي من أصل سامي يتصل بسام بن نوح، وتبلغ سردية أن صنعاء مدينة سام في الأدب الشعبي للأمة اليمانية حدَّ التواتر جيلاً بعد جيل، وهو ما لا يمكن أن يأتي من مخيلة أديب، فهي سردية غير مكتوبة تتناقلها الأمة شفاهاً، ما يعني أنها حقيقة تاريخية، وجذر الأمة اليمانية نبي الله هود بن عابر، وهو أول نبي للبشرية بعد نوح وسام، وابنه قحطان وارث المجد والنبوة، الأب الأعلى لأمة سبأ وحمير، ومنهم بُعث فيهم أنبياء الله صالح، وشعيب، وذو القرنين، ولقمان الحكيم، وحنظلة بن صفوان، وما من نبي في الأرض ولا رسالة سماوية ذاع خبرها في العالمين القديم والوسيط، إلا سبقت الأمة

اليمانية إليها غيرها من الأمم، لا التحاقاً بها، ولكن تجديداً للفكرة القومية للأمة، واحياءً متجدداً للروح الحضارية بنزعتيها الحسية والميتافيزيقية.

إن إيمان الأمة اليمانية بالرسالات والرسل عبر التاريخ لا يعني سوى أمرٍ واحد، هو أن الأمة اليمانية كانت هي المؤسس الأول للوجود التاريخي للبشرية، ونتيجة لذلك كانت وستظل تنظر لكل الرسالات والفلسفات من منظار التطوير والتجديد لإبداعها الأول الذي أهدته البشرية فيما قبل التاريخ، وهي لهذا تتجدد من خلال كل الرسالات والأديان والنظريات طوراً تلو آخر، ومن زاوية أخرى نجدها تسعى في كل مراحل حضاراتها الأولى لوصل الأمم ببعضها روحياً ومادياً، حضارياً ومعرفياً، تؤمن بالرسالات فتحولها إلى موجهات رسالية لكل الأمم، وتكتشف المعرفة فتنقلها لكل الشعوب، كما في سد ذي القرنين، فكما أنها المؤسس الأول لإمبراطورية عالمية في تاريخ البشرية في عهد الملك النبي التبع ذي القرنين الذي طاف مشارق الأرض ومغاربها، مؤسساً نظاماً عالمياً واحداً، يحقق العدالة الإنسانية لأول مرة في تاريخ البشرية في حدود القرن الثامن عشر ق.م، فهي أيضاً تجعل من الرسالات السماوية أدياناً عالميةً فتنقلها إلى مشروعات رسالية تتجاوز حدود أوطانها الضيقة، حيث تحدثنا أخبار التاريخ ومروياته البعيدة والقريبة منها، عن فتوحات يمانية لأمم الأرض وشعوبها، تارة لنشر الدين، وأخرى لنشر الحضارة والمعرفة.

إن المتفحص لتاريخ الأمة اليمانية واندماجها في الرسالات التوحيدية جيلاً بعد جيل، يدرك البعد الفلسفي للحضارة اليمنية، فهو بعد قائم على قيمة التوحيد والوحدانية، التوحيد باعتباره قيمة نظرية وعرفانية بأصل الوجود ومصدره، وكونه إلهاً واحداً خالقاً حكيماً، لا شريك له، والتوحيد باعتباره منطق الحضارة، وأساساً عملياً لتوحيد الشعور القومي للأمة، وتوحيد العالم في نظام إنساني واحد، يحقق العدالة والكرامة الإنسانية، ففكرة التوحيد لا تقتصر على المعنى المجرد المتجه نحو السماء فحسب، بل هو اسم فعل لكل عملية توحيد ترنو إلى تحقيق الكمال، سواء على مستوى الاتصال الروحي بالله الخالق، أو على مستوى الاتصال الشعوري بالأمة، أو الاتصال الحضاري بالعالم.

وإذا كانت مهمة الرسل والأنبياء هي تحقيق التوحيد في جزئه الأول من خلال الإيمان الخالص بوحدانية الله الخالق، فإن مهمة الحضارة الرسالية الأولى هي توحيد الشعور الإنساني في وحدة إنسانية واحدة تحقق العدالة لجميع شعوب الأرض، وتمنع وقوع الظلم والعدوان بين البشر، ولا تتأتى المهمة الثانية إلا بالمهمة الأولى، وإلا غلبت الأطماع البشرية وتحولت الرسالة الحضارية إلى استغلال كما هو الحال في النموذج الحضاري للغرب في مرحلتيه الرومانية والحديثة، إذ سلك الاستعمار

مسلك الاستغلال للشعوب بدلاً عن تنويرها وتحديثها والأخذ بيدها إلى نور الحضارة المعاصرة.

هذا هو الفارق الجوهري بين الرسالة القومية للأمة اليمانية وغيرها من الأمم الأخرى، فالأمة اليمانية في مسيرتها التاريخية الأولى تقدم للإنسانية صورة من صورة التفاني والإخلاص والنضال من أجل الإنسانية الكبرى، متناسية حظوظ ذاتها ما دامت تحقق الخيرية لغيرها، لكنها بهذه النفسية المنعقدة على التضحية والزهد، تتعرض في مراحل كبوتها لأنانيات كثيرة ترتد إليها من خارج ذاتها، وحتى تلك الأمم التي لا تاريخ لها ولا حضارة تذكر، سددت سهامها لأمتنا في مراحل ضعفها من قبيل ردّ المعروف، وتقدير الجميل، إذ لولا الأمة اليمانية ما بلغت أغلب الرسالات السماوات مبلغها في الانتشار والحضور في العالم، غير أن أمتنا تقدم تضحياتها للتاريخ بتجرد تام من حظوظ النفس وتداعيات الأنا، وهكذا هي طبيعة الأمم الرسالية في تاريخ البشرية.

إن إيمان الأمة اليمانية برسالة محمد (ص) كإيمانها برسالة هود وشعيب وإبراهيم وعيسى وموسى لا تفريق بين الرسل ولا تمايز، تؤمن بالمتقدم منهم كما تؤمن بالمتأخر، وتندمج في رسالاتهم دون تمييز ولا قربى، فهي تتجدد بكل رسالة في عصرها عند مبعثها، لكنها لا تفقد بهذا الإندماج ذاتها الحضارية، وروحها القومية، ذلك أنها لا ترى في الأديان هويات مستقلة عن بعضها، فالأديان تعريف عن الله الواحد، وإن تعددت الأمم التي أرسلت إليها، فكل الدين عند الله الإسلام، وإنما تحاول الأمم اكساب الدين خصوصياتها بدوافع نفسية أو مطامع سياسية، أما الأديان فهي ذات طبيعة عالمية لكل البشر دون تفريق بينهم بسبب الجنس أو اللون، ومن هنا فإن الأمة اليمانية اندمجت بكل الأديان والرسالات السماوية على اعتبار أن مصدرها إله واحد، (رحمن ذي سماوي) كانت هي أول امة تعرف حقيقته وحياً وعرفاناً.

والإيمان بالرسالات والأديان في ثقافة الأمة اليمانية لا يعني التسليم المطلق بما يأتي به دعاة هذه الأديان من تفسيرات وتأويلات وشروحات للنصوص السماوية، فالأمة اليمانية عبر تاريخها الحضاري الطويل تضع فارقاً عقلانياً نيراً بين النص وتأويلاته الوافدة، إذ تنظر إلى تأويلات النصوص باعتبارها مشاريع ثقافية خاصة للأمم التي بعث فيها الأنبياء، وهبطت عليها الرسالات، بينما نصوص الوحي عامة وشاملة لا تقتصر على أمة، ولا يمكن حدها بشعب وجغرافيا، ومن ثم فقد تتعرض الأديان للتحريف نصاً أو فهماً وتأويلاً، وإذاً يتوجب تجريدها عن فهموماتها المروية عن الأمم والشعوب الأخرى، وإعادة تبيئتها وفهمها في سياق الفكرة التوحيدية اليمانية الأولى، وقد روي في التاريخ في غير موضع أن ملوك حمير كانوا يحاكمون

اليهودية والمسيحية لديانتهم الرحمانية، فإذا وجدوا فيها ما يشوب عقيدة (رحمان ذي سماوي) رفضوها ورجعوا عنها.

إن عقيدتنا القومية إذ تعطي الرسل والأنبياء حقهم من الايمان والاجلال، لا ترى تعارضاً بين الرسالة الدينية المجردة من التوريث والأطماع السلطوية والاختزالات الأيديولوجية، وبين الرسالة القومية للأمة اليمانية، فالدين في حدود التاريخ مادة لكل الأمم والشعوب، تستطيع كل أمة أن تعيد تبيئته في شخصيتها الثقافية، فيحفظ لكل أمة كيانها دون أن تذوب في غيرها، وليس مشروعاً خاصاً بأمة أو شعب أو قبيلة تستغله لتطويع غيرها، كما ليس وثيقة تملك بيد سلالة تدعي الاستعلاء والعنصرية، وتحاول أن تفرض نفسها سيدة على الشعوب التي دخلت الدين وآمنت به، كما تفعل السلالة الهاشمية بدعوى الانتساب إلى محمد(ص) أو غيرها من السلالات التي تدعي وصايتها على الرسالات السماوية.

وإذاً فإن الحقيقة التي آمنت بها أمتنا اليمانية هي أن الأنبياء والرسل مادة التاريخ الروحي العام للبشرية، ولا يمكن لأمة أن تدعي تملكها لرسول أو رسالة دون غيرها إلا على سبيل الرغبة في استغلال الدين لصالح مشروعها السياسي على حساب غيرها من الأمم والشعوب التي تشاركها الدين والعقيدة، ومن هنا فإن الرؤية القومية للأمة اليمانية تضع فارقاً بين الرسول وأمته أو قبيلته أو عشيرته، وترفض أي دعوة تحاول استغلال الرسل والأنبياء بدعوى النسب إليهم لتحقيق أطماع سياسية أو سلطوية، وتعتبر ذلك انتقاصاً لشأنهم، وطعناً في رسالاتهم، ومحاولة لتحويل ما جاءوا به من حقائق الوحي المبين إلى مادة أيديولوجية تحقق أطماعاً سياسية وتبتني اقطاعيات خاصة باسم الدين والمقدس.

إن دعوى القرشية والهاشمية في تراث الإسلام الفقهي أو السياسي ليست ديناً، ولا صفة للتدين، وإنما هي استلاب حضاري هوياتي، حاولت بموجبه قبيلة صغيرة طارئة على التاريخ، منزوية في شعاب مكة، أن تسرق من تاريخ شعوب المنطقة وحضاراتها أمجاداً خاصةً لها، تحت دعوى أن الرسول محمد(ص) قرشي، وأن دينه رفعة لقبيلته وتمييز لها على الأمم والشعوب التي آمنت به وبرسالته، وهذا المسلك ذاته هو التحريف الحقيقي للدين والرسالة، والاستغلال السياسي لها في أبشع صوره، وهو في ذات الوقت المخالطة الأيديولوجية للأمم والشعوب بالخديعة والاستغلال، طمعاً فيما بين يديها من ملك، وما لها من رصيد في التاريخ والحضارة.

وإذا كانت قريش قد عمدت لاستغلال الدين موضوعاً وذاتاً، وحياً ورسولاً، مشروعاً خاصاً بها لبناء طموحاتها السياسية على حساب حقيقة الدين والرسالة التي لم تكن أبداً سلباً لحضارات الأمم والشعوب، فإنها قد انقسمت على نفسها بسبب

مطامع الغنيمة السياسية والمادية إلى فريقين، فريق يحمل مشروع القبيلة السياسية، وفريق آخر يحمل مشروع الأسرة والسلالة، وفقاً لتقسيمات قريش ومنافساتها قبل البعثة، بين حلفي بني عبد الدار وأمية، وحلف بني هاشم، متناسية بذلك أن محمداً (ص) لم يكن رسولاً لقريش، ولا لبني هاشم، وأنه بُعث نبياً ولم يبعث ملكاً مورثاً مجداً لأقاربه وقبيلته.

إن القومية اليمنية تتعامل مع الإسلام كغيره من الرسالات السماوية، باعتباره مادة للوحي الإلهي المجرد من أساطير القرشية والهاشمية، ودعوى الأحقية والقداسة، فجميعها طرائق استغلالية أرادت تحويل الرسالة والدين إلى سلطة وثقافة خاصة بقريش وبني هاشم، كي تسلب الشعوب والأمم الداخلة في الإسلام خصوصيتها الحضارية، وذاتها القومية، بخلاف حقيقة الوحي الذي يؤكد وجود كل الأمم والحضارات، ويدعم خصوصيتها، ويقدم لها الرسالة الدينية كدعوة للتوحيد والاتصال بالعالم الآخر دون اكراه.

م٤: الدين والإسلام

الأمة اليمانية في الحقيقة مصدر التوحيد والدين كله، ففيها أوائل الأنبياء والرسل أجمعين، فهي وارثة ديانة نوح -عليه السلام- وفيها أول نبي بعد نوح هو نبي الله هود بن عابر، وهو الأب الأعلى لكل اليمنيين، وفي الأمة اليمنية بعث الله عدداً من الأنبياء والرسل من بني قحطان، منهم نبي الله إدريس، وذو القرنين، وصالح، ويونس، وشعيب، وإلياس، وذو الكفل، وقد أنشد شاعر اليمن حسان بن ثابت أمام الرسول(ص) خبرهم فأجازه على ذلك إذ قال:

فَنَحنُ بَنو قَحطان وَالمُلكُ وَالعُلا وَمِنّا نَبِيُّ اللَهِ هودُ الأَحابِرِ

وَإِدريسُ ما إِن كانَ في الناسِ مِثلُهُ وَلا مِثلُ ذي القَرنَينِ أَبناء عابِرِ

وَصالِحُ وَالمَرحومُ يونُسُ بَعدَما أَلاتَ بِهِ حوتٌ بِأَخلَبَ زاخِرِ

شُعَيبٌ وَإِلياسُ وَذو الكَفلِ كُلُّهُم يَمانونَ قَد فازوا بِطيبِ السَرائِرِ

ولقد كان الدين في اليمن القديم يمثل محور الحياة كلها، فقد ربط اليمنيون القدماء كل مجريات حياتهم بالإله، الذي كانوا يعتقدون بأنه معهم في كل مكان، وأن وجوده لا يقتصر على المعابد فقط، بل في كل مظاهر الحياة، وهو دين توحيدي يؤمن ويعبد إلهاً واحداً لا يتجسد، وليس له نظائر وأشباه، فلم يجسد أجدادنا القدماء المعبود بشكل محدد، بتمثال أو بصورة معينة، فالديانة اليمنية في الأصل لم تكن كالديانات الوثنية التي تصور المعبود أو الإله بأشكال بشرية أو حيوانية، وتقسم الوظائف والقدرة على أكثر من إله، بل كانت الديانة اليمنية القديمة تشير إلى الخالق الذي يملك القدرة المطلقة على الإعطاء، أي واهب الكمال كله من الحياة والرزق، والقادر على سلبه. فكانت وبشكل واضح أهم إشارة أو رمز للإله هي الحماية من الشرور، فكانت كلمة (ر ث د) هي رمز الحماية والحفظ والعناية الإلهية التي تُكتب على نقوش التقدمات والقرابين.

وفي المراحل الأقدم كانت تحل محل صيغة الحماية (رث د) رمز "الهلال والقرص" الذي تم تجسيده بشكل قرون الثور التي تشبه شكل الهلال، أو بشكل حرف الخاء المسند التي عادة ما يرمز بها للقداسة، وتوضع أعلى المعابد كمعالم مرتفعة، وهو الرمز الذي نقل لاحقاً إلى المآذن الإسلامية، فصارت تحمل رمز الهلال والنجمة.

ولقد كانت أمتنا اليمنية العظيمة أول أمة تبتني المعابد وبيوت الصلاة والعبادة، على وجه الأرض، وهي أول أمة سنت الشعائر التعبدية، وأول من وضع التشريع وقوانين الحلال والحرام، ولم يسبقها أحد من الأمم ولا الأديان، بل إننا نجد كل الأديان السماوية تقتبس من الشعائر والتشريعات الدينية للحضارة اليمنية القديمة، بما في ذلك رسالة الإسلام وشعائرها، فقد أطلق قدماء اليمنيين على المعابد لفظة "حرم" و"محرم"، بمعنى المكان المقدس، أو المخصص للعبادة المقدسة، وهو المصطلح الذي أطلق على البيت الحرام بعد بنائه، وسن أجدادنا العظماء قانوناً دينياً للتعامل مع المعابد، فحرموا ممارسة أي شيء فيها غير العبادة، وحرموا دخولها بملابس متسخة، أو بدون طهارة، كما حرموا على النساء دخولها خلال فترة الحيض، وهي ذاتها التشريعات التي توارثتها الأديان السماوية في تقديس أماكن العبادة، وكيفية الاستعداد للصلاة بالطهارة والوضوء، وقد أمر القرآن الكريم المسلمين بالوضوء، وبأخذ زينتهم عند كل مسجد، كما حرم على المرأة الحائض الصلاة، وهو ذاته القانون الذي كان سائداً في الشعائر التعبدية في حضارة سبأ وتبع منذ الألف الرابع ق.م.

ومن الواضح جداً أن المعابد التي انتشرت في مصر وبابل وأشور ولدى الفينيقيين كانت منقولة عن المعابد اليمنية، فقد كان قدماء الفراعنة يطلقون على أرض سبأ (بلاد بوينت) وهي تعني الأرض المقدسة، وكانوا يأتون إلى اليمن لشراء البخور واللبان المقدس الذي كان يستخدم لتطييب المعابد ودور العبادة، وقد ابتنى ملوك سبأ وتبع معابد على طول طرق التجارة بين سبأ والشام، وكما ابتنوا معابد في المدن الرئيسة ومعابد خارجها، فكانت المعابد الموجودة خارج المدن، تُستخدم من قبل التجار والقبائل الرحالة، أما المعابد الموجودة داخل المدن فكانت مخصصة لأداء الشعائر من ساكني المدن.

ولقد كان لآبائنا العظماء طقوس تعبدية كطقوس الحج والعمرة، فكانوا يطوفون حول محرم آوام كما يطوف الحجيج حول الكعبة، وكان عدد الطواف حول معبد آوام سبعاً، يعقبه اعتراف بالذنوب، وتقديم القرابين والأضاحي، وغالبا ما تكون الأضاحي من حيوانات مفضلة لله، وهي الوعلان، والغنم والخراف والثيران، وكان تقديم القرابين لطلب غفران الذنوب، أو لشكر الله تعالى أملاً في الرحمة والرزق، وهذا يتطابق كلياً مع شعائر الحج ومقاصده في الإسلام، كما يتطابق مع التوجيهات القرآنية الخاصة بالحج، كالأمر بالاستغفار، والأمر بالنحر والتضحية بالهدي من الأنعام، مما ليس فيه عيب.

ومن الواضح أنه كانت تقام أفراح دينية موسمية، بعد انقضاء شعيرة الحج والطواف، حيث كان لملوك سبأ والتبابعة سلطة دينية في تلك المواسم الفرائحية الدينية، إذ يترأس الملك المهرجانات الدينية، ويشرف على العمليات في المعبد، وكان

اليمنيون يحافظون على عباداتهم الموسمية عن طريق الاشتراك في المهرجانات الدينية، وكانت بمثابة الشعائر الجماعية كصلاة العيد في الإسلام.

ومن الشعائر التي نقلت إلى الإسلام عن الحضارة اليمنية القديمة شعيرة صلاة الاستسقاء، فقد كان لأجدادنا العظماء شعيرتان في العام يقيمونها إذا انحبس المطر، في الخريف والربيع، حيث ينهضون للصلاة والدعاء طلباً للسقيا، وكانوا يسمونها "سقي خرف ودثا" أي "سقي الخريف والربيع" وإن أنعم عليهم الله بالمطر، قدموا القرابين شكراً وحمداً لأفضاله عليهم.

ومن التشريعات التي سنها ملوك الحضارة السبئية وملوك التبابعة عقوبة قتل القاتل حداً بالسيف، وعقوبة الدية في الخطأ، حيث وجد في نص سبئي يعود للقرن الثامن ق.م، أمر قبيلة أحد المجرمين بدفع مئتين لخزينة المعبد لقاء دم مقتول، كما منعت القوانين السبئية أصحاب الحق من ذوي المقتول أخذ حقهم بأياديهم، وفرضت عليهم عقوبات إذا ما قاموا بذلك، فالعقوبة من اختصاص قاضي المعبد ومجلس الحكم، وكانت عقوبة الفساد العام وإفساد النظام ونشر الفوضى أو الخيانة العظمى للدولة هي القتل، والقرار النهائي والأخير ليس بيد القاضي، بل بيد رأس الدولة، ومن حق الملك العفو، حيث وردت نصوص عن عفو يصدره الملوك تجاه الآخرين، مع اشتراط الملك أن يقدم المعفو عنه قرباناً في المعبد، وأن يسأل الله أن يغفروا له تعديه على النظام، وهو يشبه حد الحرابة في الإسلام.

كما كشفت النقوش الأثرية عن قوانين سبئية وحميرية تحرم وتمنع وأد البنات، وهو ما يتطابق كلياً مع تعاليم الإسلام التي حرمت وأدَ البنات، وهي عادة كانت البدو من الأعراب يمارسونها مخافة العار، وقد حرمتها دولة سبأ، واعتبرتها جريمة إنسانية، وجاء الإسلام ليؤكد على ذلك.

وكشفت النقوش -أيضا- عن قوانين الزكاة، والتي كانت تسمى واجباً، ومقاديرها العشر ونصف العشر، وكان الذين يتهربون من دفعها يعاقبون بخمسين جلدة في مكان عام، وكان السبئيون يفرقون بين الزكاة والضرائب، فقد سجلوا القوانين الخاصة بالزراعة والتجارة، على صخور كبيرة الحجم، فإذا كانت ذات علاقة بالتجارة فإنّها تُعلّق على مداخل الأسواق، أمّا إذا ارتبطت بالزكاة والمزروعات فإنها كانت توضع في المعابد.

بهذه الحقائق التاريخية يتضح بيقين تام أن رسالة الإسلام الخاتمة هي التوثيق المقدس للتوحيد اليمني الخالص، وأنها تعبر عن الروح اليمنية المؤمنة بالله الواحد، المتصالحة مع تعاليم الوحي عبر تاريخ البشرية، وأنها تمثل الحلقة الأخيرة في سلم التطور الروحي للأمة اليمنية المقدسة، فهي الأمة التي لم تسجد لصنم قط عبر ما

يزيد على سبعة ألف عام، بخلاف قريش التي عبدت الأصنام في جوف الكعبة، وجادلت في عبادتهم ربنا سبحانه وتعالى فقالت: "إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى"، وأنها الأمة التي طبقت شرائع الله وشعائره عبر تاريخها الطويل مخلدة بذلك أروع وأطول علاقة روحية بين الإنسان والخالق الأوحد سبحانه.

لقد جاءت بعثة محمد (ص) على الحقيقة، لتجديد الروح الدينية العظيمة لإمبراطورية سبأ وتبع، وإعادة نفخ الروح فيها للنهوض بواجب المنافسة الحضارية للرومان والفرس، غير أن قريش التي لم تكن تذكر في التاريخ، حاولت تجيير رسالة الإسلام الخالدة لصالح أطماعها السياسية القبلية والأسرية، مستغلة عاطفة التسامح لدى اليمنيين، وانشغال الأمة اليمنية بالفتوحات الإسلامية.

إن حقيقة وروح الإسلام تتماهى وتندمج وتتجانس مع روح الأمة اليمنية، بحيث يبدو الإسلام كما لو كان البعث المتجدد لإمبراطورية سبأ والتبابعة، وهو ما صرح به القرآن الكريم في معرض ذم واستنكار اعراض قريش عن دعوة الرسول(ص) دونما سبب من ملك أو حضارة، فقال: "أهم خير أم قوم تبع"، ولقد أفرد القرآن الكريم للأمة اليمنية عدداً من سور القرآن للدلالة على أن رسالة الإسلام امتداد لرسالتها الحضارية، هي سورة هود التي وصفت حضارة عاد الأولى المؤسسة للأمة اليمنية، ثم سورة سبأ التي وصفت امبراطورية سبأ وعظمتها، ثم سورة لقمان الحكيم، وسورة الأحقاف، فضلاً عن ذكر اليمن وحضارتها في عدد من آيات القرآن الكريم، فضلاً عن نزول القرآن بلغة اليمن العربية الفصحى، واقتباس القرآن الكريم طريقة الأحرف المقطعة فواتح السور من الكتابة السبئية، كما تدل على ذلك نقوش المسند، حيث يفتتح النقش بحرف كبير مفرد مطلع الموضوع، تماماً كما هي فواتح بعض السور بالأحرف المقطعة، وهو اللغز الذي لم يكتشفه فقهاء العرب والمسلمين، ممن تجاوزوا الخط اليمني المسند في كتابة القرآن الكريم، وذهبوا لكتابته بالرسم السرياني، متأثرين بنزعة الغيرة والمنافسة القرشية تجاه الحضارة اليمنية.

الفصل الثاني: الأصول الفلسفية

أ- الأديان والحضارة

ب- الأديان والأوطان

ث- الوطن المقدس

ج- التاريـخ المقدس

أ- الأديان والحضارة

كان الدين هو الدرس الأول الذي تلقته البشرية منذ لحظة وجودها على الأرض، فالأنبياء هم المعلمون الأول الذين نقلوا البشرية بتعاليمهم من مرحلة إنسان الغابات والتبدي إلى الاجتماع والمدنية، ذلك أن الإنسان العاقل تلقى تعاليمه الأولية من الوحي، فآدم -عليه السلام – كان نبياً ومن ذريته نبي الله إدريس، ثم نبي الله نوح - عليه السلام.

ومما لا شك فيه أن الاجتماع التاريخي الأول للبشرية تأسس على دعوات دينية ورسالات سماوية، تشكلت من خلالها التجربة البشرية، وكانت في البدء تجربة مرتبطة بالسماء، فكان الدين قانونا عاماً يحكم الفكر الإنساني، ومركباً عاماً للقيم الحضارية، من خلال توفير الوسط والبيئة التي يتشكل فيها الفرد والمجموع، ومن خلال تدخل الدين في تنظيم فكر الإنسان وتوجيه نشاطه وطاقاته إلى غايات ما وراء طبيعية، أخروية تتجسد فيها العلاقة الروحية بين الإنسان والله في صورة علاقة اجتماعية بين الإنسان وأخيه، وبين الفرد والمجتمع، توفر قانونا أخلاقياً لما يقوم به الإنسان وما يحيا من أجله فرداً ومجموعاً.

وخلال المرحلة الأولى التي انعكست فيها روح الدين اجتماعاً بشرياً، اكتسب المجتمع الإنساني فكرة الاجتماع التاريخي، وبدأت كل أمة تأسيس وجودها الاجتماعي على أساس من الدين الذي دانت به، أو الرسالة التي بعثت فيها، فنشأ من ذلك تعدد أممي وتاريخي، ووفقاً لنظرية التحدي عند توينبي شكّل الدين نقطة البدء في عملية التحول الحضاري، عبر انتقال التحدي الخارجي إلى انفعال داخلي، ليظهر الإحساس بالمشكلة تدريجياً من مجال المادة إلى مجال الروح، التي تعمل بدورها على رفض ما هو قائم وتذليله وفق متطلباتها وتطلعاتها الذاتية، ولأن الأديان ذات طبيعة لا وطنية، أو بمعنى أصح تتجاوز حدود الجغرافيا والتاريخ، فقد شكّلت تحدياً للأمم تجاه بعضها، فوقع هذا التحدي موقع الدافعية والاستجابة، فنشأت الحضارات والهويات التي جعلت حدوداً فاصلة بين الأمم.

كان الدين في البدء رسالاتٍ قوميةً للأمم، وكل أمة في التاريخ شكلت شخصيتها باستقلالية عن غيرها، وفق ثقافة خاصة، استقتها إما من وحي ديني، أو من عادات الآباء والأسلاف وقوانينهم الاجتماعية، لكن الأديان ما لبثت أن تحولت إلى رسالات عالمية، فدفعت الأمم إلى التصادم الحضاري والتوسع، ولا تزال الأمم تندمج في الأديان الكبرى، حتى تشكلت من ذلك خارطة المنافسة الحضارية للعالم القديم والوسيط، ضمن نطاق الديانات الكبرى، ورغم أن حقيقة الدين تتصل بالسماء،

وتنظم علاقة الإنسان بربه، إلا أن الأمم اكتسبت من الدين روحاً قوميةً ودافعاً حضارياً، لا يزال يدفع بها في ميدان التحدي الحضاري على مستوى العالم.

إن العقائد الدينية تلعب دوراً بارزاً في مجريات التاريخ، بل إن بعض الفلاسفة والمفكرين يرى أن الدين يكمن وراء كل الحضارات الإنسانية القائمة، وأن الحضارات ولدت من رحم الأديان، فالحضارة السبأية ولدت عن رسالة هود، وحضارة التبابعة ولدت عن نبوة ذي القرنين، والحضارتان المسيحية الغربية والأرثوذكسية ولدت عن المسيحية، والحضارة الإيرانية ولدت عن الزرادشتية والمانوية، والعربية المتأخرة ولدت عن الإسلام، وحضارات الشرق الأدنى ولدت عن البوذية، والحضارة الهندية ولدت عن الهندوسية، والحضارة الصينية ولدت عن الكنفشيوسية، وأيما أمة ذات حضارة خالدة في التاريخ، فإنها ولدت من رحم ديانة سماوية أو رؤية كونية أخلاقية، ذلك أن العامل الديني والميتافيزيقي حاسم في خلق الفاعلية الحضارية، والوحدة الشعورية بين أفراد الأمة ذات الرسالة التاريخية.

ومن هنا فإننا نجد أن أمتنا اليمنية دفع بها إلى التاريخ الحضاري سلسلة من الرسالات السماوية، ابتدأت بنبوءة نوح ورسالته، ثم نبوءة سام بن نوح، ثم نبوءة هود أبو قحطان الذي انسلت منه كل اليمانية والعرب، ثم من نبوءة صالح، ثم نبوءة الملك العظيم والنبي الحكيم ذي القرنين، ثم نبوءة لقمان الحكيم، ثم نبوءة حنظلة بن صفوان، فهؤلاء هم أنبياء الأمة اليمانية، ومن رسالاتهم ولدت الانبعاثات الحضارية الأولى في التاريخ البشري، وكانت الأمة اليمانية هي السابق الحضاري الأول في البشرية، ومنها تفرعت حضارات الشرق الأوسط، الفرعونية والبابلية والأشورية، وتأكدت وحدتها الحضارية برسالة إبراهيم التي أكدت وعززت الوحدة الحضارية لتلك المدنيات، فهي كلها أفرع لأمة واحدة وأصل حضاري واحد، هم قوم قحطان وسبأ وقوم تبع.

وإذا كانت الحضارة اليمنية قد خطت اندفاعاتها في التاريخ رسالات سماوية متأصلة في وجودها القومي، في العصور الأولى لما قبل وبعد التاريخ، فإنها جددت شخصيتها القومية، ووظيفتها الحضارية من خلال اندماجها بالرسالات السماوية اللاحقة لوجودها الحضاري، رسالة إبراهيم، ورسالة عيسى، ورسالة موسى، ورسالة محمد(ص) دون أن تذوب في غيرها من الأمم التي بعثت فيها تلك الرسالات، رغم ما تعرضت له الأمة اليمانية في مراحل تراجعها من محاولات حثيثة لطمس هويتها الحضارية وشخصيتها القومية، لجعلها ملحقة بالروم أو الفرس أو قريش لاحقاً، إلا أن الأمة اليمانية الأصيلة ذات الجذور الحضارية الضاربة في أعماق التاريخ البشري، رغم ما مرت به من مراحل تخلف وانكفاء، وما تعرضت له من استعمار سياسي وثقافي، ظلت محتفظة بشخصيتها القومية المستقلة إلى يومنا هذا، مدركة كل

الإدراك أنها سابقة لكل الأمم في معرفة الله، والتدين بدينه الحق، وأنها من علم الأمم طريق التوحيد والرسل، وليس أحد من العالمين أقدر منها على معرفة الدين الخالص، والتجدد به، دون وساطة من قوميات طفيلية وافدة، تحاول أن تتلبس الإسلام، كما تلبست بنو إسرائيل ديانة موسى، والحبشة ديانة عيسى، لتفرض نفسها وصية على اليمنيين باسم الإسلام، وكأنها وفدت اليمن لتكون عقاباً للأمة اليمانية على اعتناق هذا الدين، والدخول فيه.

إن حضارتنا اليمنية القومية تعتمد في الأساس على روح الأمة اليمانية، تلك الروح التي امتزجت فيها رسالة التاريخ ورسالة السماء، على مدى سبعة ألف عام، وهي روح غير منكفئة على غير ثقافتها المنفتحة على كل الأديان والرسالات السماوية، الواعية بوظيفة الدين في الحياة العامة والفردية، في التاريخ والتعبد، فالأمة اليمانية هي التي علمت العالم حقيقة الدين، كما علمته سنن التاريخ والحضارة، فهي أمة قائمة بذاتها عبر التاريخ، لا تحتاج إلى من يعلمها الدين، متلبساً به أو متجرداً عنه، فهي روح الدين وعقله ووعيه، كما أنها أم الحضارة والتاريخ.

إن لكل أمة في التاريخ تجربة اندماج بدين ما، وإننا لنرى أغلب الأمم ملتبسة جد الالتباس في تجاربها مع الدين، ففي التاريخ القديم نجد الأسطورة المصرية القديمة بنيت على أساس أن مصر مركز الكون، والآلهة تمظهرات الكون الفيزيائية، وتصل إلى ١٥٠٠ إله، وكل إله فيهم خالق، وكل إله مختص بخلقه، والآلهة تبدو في بعض الأحيان حكاماً، وفي أحايين أخرى يكون الحاكم ابن الإله، وفي حضارة سومر كان الملك ابناً للآلهة، ويذبح لها عشر الأسرى الذين يأسرهم في الحروب، بعد أن يقيدهم في الزنازين، وفي بابل القديمة نجد تداخلاً كبيراً بين مقام الإله ومقام الملك، ومقام الملك ومقام الكاهن، فالملك وكيلاً للإله، والكاهن روحه وقداسه، وفي الهند القديمة كانت مؤسسة الفارنا البراهيمية تصور للناس أن الإله مكون من أربعة أجزاء، الرأس والذراع والفخذين والقدمين، وقسمت المجتمع على هذا الأساس أربعة أقسام هي (البراهما)، وتمثل الرأس وهم طبقة الحكام، و(الكاسترا) وهم الذراعين ويمثلهم الجند، و(الفيزيا) وهم الفخذين ويمثلهم العمال والزراع، و(السودرا) يمثلون القدمين وهم الخدم، وفي المجتمع الفارسي القديم كانوا يعتقدون أن كورش الأكبر ابن إله النار، ومن نسله جاءت ملوك الساسانيين، والنار مقدسة كونها رمز للإله والملك، وفي اليونان القديمة يظهر الدين عامل تفرقة، والآلهة تتصارع وتتقاتل فيقتتل الشعب، ولكل قبيلة بل لكل بيت إله مستقل، توقد له النار في المنزل فلا تنطفئ.

وإذا ما تركنا المجتمعات القديمة وسرنا بخطى سريعة إلى التاريخ الوسيط، فسنجد اليهود من بني إسرائيل يدعون أنهم شعب الله المختار، ويتهمون أنبياءهم بالزنا والفواحش، وتارة يعبدون الله، وتارة أخرى يعبدون آلهة أخرى، ويفشلون في

تأسيس دولة مستقلة عن رؤيتهم الدينية، فتغدو التوراة توثيقاً للأحداث والصراعات، وكأنها كتاب يسجل سيرة بني إسرائيل الخاصة، وليست كتابا لديانة عالمية، وتذهب حد التعصب للعرق اليهودي والتاريخ اليهودي دون غيره، وفي أوروبا المسيحية في العصور الوسطى نجد الامبراطور قسطنطين يتدخل في تحديد طبيعة الذات الإلهية، فيقرر أن الإله ثالوث مقدس (الأب والابن وروح القدس) أي الله وعيسى ومريم، ثم تنتقل السلطة للكنيسة والبابا لاحقاً، بعد انكماش الإمبراطورية فنرى البابا ظل الإله ونائبه في الأرض، والحاكم بأمره، وهو الذي يسن القوانين ويقسم الناس في المجتمع إلى نبلاء وعبيد، ويشكل الإقطاعيات، ويمنح صكوك الغفران، ويبيع الجنة للأمراء والملوك العصاة مقابل المال، وفي ثقافة قريش الدينية نجد الوصاية على الدين باسم القرشية والهاشمية، فالدين ليس سوى مشروع سياسي سلطوي لقريش أو لبني هاشم، والمسلمون مجرد أجراء لديهم يدفعون الخمس مقابل الانتساب للدين.

وهكذا التبس على كل الأمم حقيقة الدين ودوره في الحضارة، مما جعل الفلسفة الحديثة تتجاوز الفكرة الدينية، وتحبسها في أروقة الكنيسة والمعبد، كيلا تعيد انتاج الثيوقراطيات المستبدة باسم الإله والحاكمية المطلقة.

لكننا نجد النموذج الفريد في حضارتنا القومية اليمنية، فلا نرى في تاريخنا الحضاري ثيوقراطيات دينية ولا استبداداً باسم الإله، فالملك الأعلى (التبع) يختاره مجلس الأذواء، ويستفتى عليه مجلس الأقيال، ولا يدعي أنه ابن الإله، ولا وكيلاً عنه، ولا حاكماً باسمه، وإنما هو حاكم باسم الشعب والأمة، ولكنه مع ذلك يباركه الإله (رحمن ذي سماوي) ويحقق له النصر والظفر، ويبارك شعبه وأمته، وليس للملك ميزة مقدسة على الناس، بل هو واحد منهم، يدخل المعبد مثل أحدهم، فيصلي ويطوف، وينذر النذور، ويدعو الأدعية، فإذا خرج من المعبد اتجه إلى عرشه، يجادله الأقيال ويقوّمون سياسته، ويصوبون رأيه، في صورة شوروية وديمقراطية فريدة.

ورغم تقلد الأمة اليمانية لوظيفة الدعوة لكل الرسالات السماوية أو أغلبها، إلا أنها لم تدعي يوماً أنها أمة مقدسة على غيرها من الأمم، أو أنها شعب الله المختار، وأمته المنتجة، وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على النضج الحضاري الذي بلغته هذه الأمة في تاريخها القديم بطبيعة العلاقة بين الدين والحضارة، والتاريخ والعبادة، وأنها علاقة دافعية وروح، لا كهانة وثيوقراطية، وأن الدين والسياسة يكملان بعضهما من حيث الأدوار الحياتية، دون استغلال ولا هيمنة، بحيث يظل الدين نبعاً صافياً بعيداً عن الاستغلال السياسي الذي يتحول إلى شكل من أشكال الاستبداد البشع للإنسانية، وتظل الحضارة متصلة بالروح الدينية والعقدية للأمة غير منكفئة عنها.

ب- الأديان والأوطان

شكّلت العلاقة بين الأوطان والأديان جدلية الماضي والحاضر لعدد من الأمم في التاريخ البشري، وعلى مستوى العرب والمسلمين بشكل خاص، حيث نظر لنموذج الخلافة العامة للأمة بعد موت النبي محمد(ص) على أنها مطلب ديني أو قيمة عليا من قيم الدين الجديد، وأن الحديث عن الأوطان والحضارات القديمة ما قبل الإسلام شكل من أشكال الردة السياسية عن الإسلام، وفي ضوء هذه الرؤية حسمت فتنة حروب الردة أيام الخليفة أبي بكر، فانتقلت العرب من الشكل الوطني للدولة إلى الشكل الامبراطوري، تحت مسمى الخلافة، وعلى مدى ١٣٠٠ عام، ظلت نظرية (الوطن العقيدة) تتحكم بمصائر الشعوب المسلمة، وتهدد استقرارها الوطني تبعاً لصراعات القرشية والهاشمية، حيث لم يسلم شعب من الشعوب الداخلة في الإسلام من فتنة طائفية بين القرشية والهاشمية، أو مذهبية بين طوائف الشيعة والسنة.

ومع بداية القرن العشرين وسقوط الدولة العثمانية تقاسم الاستعمار النفوذ في المنطقة، وأعاد تشكيل الخارطة السياسية لها وفقاً لمصالحه وتقاسماته، ونتيجة لذلك ظهرت أصوليات دينية، وتوجهات أممية، تحت مسمى الخلافة والقومية، تطرح من جديد فكرة (العقيدة الوطن)، أو فكرة (الأمة الوطن)، ونشأت لها بعض التأصيلات غير الواعية التي غزت المجتمعات والشعوب العربية والإسلامية، ومنها اليمن، وقد عملت هذه الأصوليات والقوميات غير الواعية على مصادرة وعي الشعوب بذاتها وواقعها، وعلقتها بآمال وأوهام غير واقعية، فكانت النتيجة بعد قرن من الزمن فشل حلم الدولة الوطنية، تحت تموجات هذه الروح المتمردة، المتجاوزة للأوطان، وها نحن اليوم في المنطقة العربية واليمن نعيش هذه اللحظة من الفشل الذريع نتاج هذه الاستيرادات اللاواعية للأفكار والعقائد المتجاوزة للأوطان والتاريخ.

لقد خلفت هذه الأفكار المتجاوزة للأوطان، اللاواعية بحقائق التاريخ وطبيعة الدين المتجردة من الاستغلال السياسي والأيديولوجيا، مشكلة اجتماعية وثقافية كبيرة في البلاد العربية، واليمن على وجه التحديد، يمكن مشاهدتها في ظاهرة مرضية نطلق عليها "ازدواج الشخصية" ففي معظم هذه البلدان تزداد على المستوى الفردي ظاهرة "التديّن" واهتمام الناس بالعبادات الدينية ومشاكل الأمة العربية والإسلامية، لكن على المستوى الوطني نجد جيلاً يدوس على القيم الوطنية، وينهب مقدرات وطنه، أو يتآمر عليه مع قوى خارجية، ولديه استعداد قوي لتدمير وطنه واشعال الحروب والفتن فيه، تبعاً لسياسة الفكرة المتعدية التي ينتمي إليها، وكثير من هؤلاء

المؤدلجين بالأفكار الدينية الوافدة المتعدية يعتبر النشيد الوطني بدعة وكفراً، والعلم الوطني معارضة لراية التوحيد، والتاريخ الحضاري للوطن معارضة للعقيدة، وهذه هي الكارثة التي جنتها هذه الأفكار المتعدية على أمتنا اليمنية.

إنه لولا فكرة (الوطن العقيدة) ما ظهرت الحوثية التي تقاتل اليمنيين لصالح إيران، ولا الجماعات الدينية الأخرى التي تقاتل لصالح انتماءاتها العقدية المتعدية، ولا رأينا أحزاباً سياسية تقايض باستقرار اليمن لمصالح دول أخرى، تشترك معها في المبدأ الأيديولوجي، فكل هذا التدمير والفشل الذي لحق بأمتنا اليمنية جزء كبير منه يعود لهذه الإشكالية الجذرية في التكفير الأبجدي بحقائق الأوطان والأديان.

إن طبيعة العلاقة بين الدين والوطن كطبيعة العلاقة بين الإنسان والثقافة، فالثقافة مجموع ما يؤمن به الإنسان وما ينتجه من أفكار وصنعة، وهي ليست استلاباً لذات الإنسان، ولا استبداداً به، بل تعبير عنه، وعن ابداعاته. والدين بالنسبة للأوطان باعث حضاري لها، يعزز قيمها الخيرة، ويدعم من ذاتها ووجودها الحضاري، ولا نكاد نجد في التاريخ ديناً لم يعزز من قيمة الإنسان والزمان والمكان للأمة المبتعث إليها، فالقرآن يخاطب قريشاً في سورة خاصة بهم تدل على المكان والتاريخ ممثلة في مكة والإيلافات التي أسست لوجود قريش في التاريخ، ويخاطب الأمة اليمنية بحضارتها الإمبراطورية السبأية، ويؤكد سبقها الحضاري وخيريتها الإنسانية، بتأكيده على فضل قوم تبع على غيرهم من الأمم، ويصف أسباب الانهيار الحضاري لامبراطورية تبع في كلمة واحدة تختصر الزمان والمكان، هي قولهم(باعد بين أسفارنا) والتي تعني تحول الفكرة السياسية من الشكل الوطني المستقر، إلى الشكل الامبراطوري العالمي في التاريخ القديم، مما تباعدت عليهم المسافات، فكانت لا تصل الأخبار والأوامر من أطراف الإمبراطورية إلى مركزها إلا بعد مرور أعوام أو أشهر، فحصلت بذلك المظالم، واختل نظام العدالة العالمية، وبدأت الانفصالات والثورات عن سلطة المركز، فتمزقت قوتهم في الآفاق، وعادوا بعد تمزق الإمبراطورية العالمية إلى الشكل الوطني، لكنهم تعرضوا لغزوات الإمبراطوريات الصاعدة التي أيقظوها، وعلى رأسها الرومان التي نشأت على غرار امبراطورية تبع.

وبالعودة إلى العلاقة بين الدين والوطن، يمكننا أن نجزم بأن الأديان كلها تعزز من الهويات الوطنية والقومية للشعوب والأمم، ولا تصادرها، وتتساير مع أشكال الدولة في كل مستويات تطورها، من الوطنية، إلى القومية إلى الأممية إلى الإمبراطورية العالمية، فهي لا تختصم الهويات الحضارية للأمم والشعوب، ولو كانت كذلك لما أقرّ القرآن الكريم قريشاً على إيلافاتها، ولا تحدث عن الأمة اليمانية من خلال وجودها الحضاري، قوم سبأ وقوم تبع، ولا تحدث عن جغرافيا الأمم السابقة. ويكمن السبب الحقيقي في سوء فهم العرب لطبيعة الإسلام قديماً وحديثاً، ذلك أنهم

رأوا في دولة الرسول(ص) في المدينة تشكيلاً جديداً لوجود تاريخي يتجاوز الشعوب والحضارات في المنطقة، دون أن يعملوا عقولهم في البحث والنظر في مسوغات ذات التشكيل الجديد، وهل يتطلب الكفر والقطيعة مع التاريخ الحضاري لشعوب المنطقة، أم أن له بيئته الخاصة التي تخلق فيها؟

إن الحقيقة التي يتوجب الوقوف عندها، هي أن بيئة مكة والمدينة لم تكن تعرف تجربة تاريخية قبل الإسلام، وإنما كانت عبارة عن تجمعات قبلية تحكمها أعراف بسيطة لا ترقى لمستوى نظام اجتماعي فضلاً عن دولة وسلطان سياسي، وفي تلك البيئة الأقرب للتبدي بعث محمد(ص) بدعوته، فعارضه قومه في مكة ظانين أنه سيسلبهم الملك المتوهم الذي بأيديهم، فهاجر إلى المدينة فوجد بها قوماً من هجرات يمنية سابقة هم أقرب للمدنية من أجلاف مكة، فأقام بينه وبينهم عقداً سياسياً عرف بصحيفة المدينة، أشبه بقانون دستوري لتأسيس سلطة مدنية، وارتضاه القوم لهم رئيساً وحاكماً، فجمع في شخصه بين النبي الموحى إليه، والحاكم الذي ينظر في مصلحة الشعب، ويشاورهم في الأمر، فلما بلغت دعوته خارج حدود الوطن الذي أسسه، وهو المدينة، تغيرت سياساته العامة، فخاطب الملوك داعياً لهم إلى الإسلام، دون أن يرسل جيوشاً لضمهم وبلدانهم لسلطانه، فكانوا إذا دخلوا دينه أقرهم على ما هم عليه في أوطانهم من السلطة والملك، فتجاوزت بذلك الدولة صفة الوطنية، وصارت دولة امبراطورية ممتدة الأطراف، فلما توفي اختلف القوم من بعده، وحدث الاضطراب السياسي نتيجة غياب الرؤية لشكل الدولة، هل لا تزال دولة وطنية لقريش وحدها؟ أم امبراطورية لكل العرب والمسلمين؟ وهذا هو الإشكال الحقيقي الذي تسبب في الصراع السياسي الدامي على مدار التاريخ الإسلامي، ولو أنهم التزموا سياسية النبي محمد (ص) الاتحادية أو الفدرالية لسلمت الأمة من الصراع السياسي، والحروب الدموية التي عصفت بكل الشعوب المسلمة على مدى ١٤٠٠ عام.

إن من طبيعة الحضارات الوطنية ذات الجذور التاريخية والثقافية المشتركة، أن تتحالف مع بعضها في منعطفات التاريخ، وأن تشكل من ذلك التحالف وحدة حضارية امبراطورية تتجه نحو المنافسة على زعامة الكوكب، وليس هذا مقتصراً على الشكل الحديث الذي نراه في الحضارة الغربية وفي أمريكا الراهنة، وإنما هو سنة تاريخية ماضية في كل دورة من دورات التاريخ والحضارة الإنسانية، ولم تكن أول مرة في التاريخ تندمج شعوب المنطقة في حضارة امبراطورية واحدة، ففي التاريخ القديم كانت حضارة قوم تبع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد تشكل الملوكية العليا لكل حضارات المنطقة، فكان الهكسوس يحكمون مصر، وحمورابي بن شمس عاد يحكم بابل، وأخوه لقمان الحكيم يحكم سوريا، وأبوهم شمس عاد الإمبراطور الأعلى في

عرشه بمأرب، وبعد موته انتقلت الملوكية العليا لابنه حمورابي فانتقل إلى عرش سبأ، ومع هذا ظلت حضارات مصر وبابل وأشور والفينيقية وسبأ حضارات مستقلة لم تذب، ولم تندمج بشكل ينهي خصوصيتها التاريخية.

ومثل ذلك فعلت شعوب أوروبا في التاريخ الروماني، والتاريخ الحديث، وقد تسببت بعض السياسات الاندماجية في حروب عالمية كبرى، كحرب الجرمانيين التي أسقطت الرومان، واحتلت روما، والحرب العالمية الأولى والثانية التي تسببت بها سياسة هتلر التوسعية، وقد فطنت أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية لفكرة الاتحاد السياسي، بعد أن رأت نجاح النموذج الأمريكي ووصوله إلى انتزاع سيادة العالم من يد أوربا المتنازعة.

لقد كانت مشكلة التاريخ العربي الوسيط والحديث ولا تزال، هي محاولة دوله تذويب هويات وحضارات الشعوب المكونة لهذا الوجود التاريخي، طمعاً في تحقيق سياسة الضم والإلحاق، وهي سياسة نابعة من أطماع الأقلية القرشية التي رأت في نفسها تصاغراً أمام الشعوب العربية الكاثرة، فأصّلت لفكرة الاندماج في الهوية القرشية، مدعية أن القرشية هوية الإسلام وأهله، وأن الخلافة والإمامة في قريش ما بقي منهم اثنان، أو في بني هاشم بدعوى القرابة والتوريث، ولم يكن ذلك سوى شكل من أشكال التوظيف السياسي للدين، لاستغلال الشعوب العربية، وتسييرها بطواعية لتحقيق مصالح الأقلية القرشية.

إن هوية الأوطان أصل ثابت منذ لحظة ولادة المجتمعات، بينما الدين ثقافة متغيرة، فقد كانت الأمم تدين بدين ثم يأتي دين جديد فتدين به، حتى جاءت الرسالة الخاتمة، فثبت الدين واستقر، ولكن فهمه سيظل متغيراً بحسب الزمان والمكان والبيئة، ومن ثم فإن القول بأن (وطن المسلم عقيدته) قول خاطئ، لا يسنده حتى القرآن نفسه، فضلاً عن حقائق التاريخ والثقافة، فالعقيدة لا تستطيع أن تتحقق في الواقع ما لم يكن لها وطن تستقر فيه، وبسبب ذلك كانت هجرة الرسول(ص) إلى المدينة بحثاً عن وطن وبيئة صالحة لتأسيس دولته، إذ لو كانت العقيدة وطناً له ولأصحابه، لاكتفى بالدعوة دون البحث عن سلطة سياسية، وحتى بعد الهجرة، كان سيترك السلطة في المدينة لأهل المدينة ويكتفي منهم بالدعوة، كما فعل عيسى ابن مريم في ظل الدولة الرومانية.

ثم إن التاريخ الإسلامي كله من حيث الاستحقاق السياسي، لم يخدم سوى الهويات التي أقامت من خلاله دولها القومية، فالتاريخ لا يخدم الأمم والشعوب الساذجة التي تفرط بذاتها الحضارية، وتذوب في غير شخصيتها التاريخية، حتى لو كان تاريخاً مقدساً، ولكم أن تلحظوا كيف حوّل الإسلام قريشاً من قبيلة عربية

مغمورة في بطحاء مكة، إلى امبراطورية كبرى، على حساب شعوب المنطقة وحضاراتها، وكيف استطاعت قبائل الأتراك العثمانيين الممزقة في البلاد أن تستخدم الإسلام عامل توحيد لشتاتها المبعثر، فتغدو ثاني امبراطورية بعد قريش في تاريخ الإسلام، وكيف حمت فارس شخصيتها القومية من خلال زعامتها للإسلام الشيعي، كمعارضة هوياتية للإسلام العربي، وبالمقابل كيف انكسرت حضارات المنطقة العريقة، وأصابها الحزن والأسى، أمام سلطة قريش والعثمانيين وايران، فانكسرت شخصية اليمن الحضارية، كما انكسرت حضارة بلاد الرافدين ومصر وأشور، بل صارت هذه الحضارات جزءاً من الموروث الجاهلي بنظر القرشيين، ورغم انتقال سلطة الخلافة بين عواصم الحضارات القديمة من بابل إلى دمشق إلى القاهرة إلا أن هذه الشعوب لم تستطع استعادة ذاتها الحضارية، أو على الأقل مشاركة قريش والعثمانيين في السيادة.

إن أي دعوة أو فكرة تضع العقيدة بموازاة الأوطان، أو تطرح فكرة الوطن العقيدة، ليست سوى شكل من أشكال الاستلاب السياسي للمجتمعات المسلمة، ومحاولة لخلق وصاية لبعضها على بعض، ولن تخدم مثل هذه الدعوات سوى قريش التاريخية، وإيران بني هاشم الراهنة، والعثمانية المتجددة، ذلك أن هذه الثقافات الثلاث هي وحدها التي استطاعت تحويل العقيدة الإسلامية إلى مشروع سياسي، دار الإسلام في فلكها كما يدور الجمل حول الرحى، بينما خسرت كل شعوب الأمة ذاتها الحضارية، وتحولت إلى جيش لخدمة هذه القوميات الثلاث.

ومن الحق والصواب التأكيد على أن الإسلام ليس ملكاً لقريش بشقيها الأموي والعلوي، أو السني والشيعي، ولا للعثمانية، ولا لإيران الشيعية، بل هو رسالة دينية للعالمين، وليس من حق أي شعب أو دولة أن تصّدِره مشروعاً سياسياً لها، بل لكل شعب وأمة من شعوب وأمم الإسلام، أن تفهم الدين في إطار شخصيتها الحضارية، وأن تقيم بينه وبين حضورها التاريخي علاقة من التكامل والتجانس المستقل، دون أن يكون لأي من غيرها سلطان عليها، ولا وصاية، فإذا ما بلغت الشعوب المسلمة مستوى النضج الحضاري، وقررت أن تخوض تجربةً حضاريةً عالمية متجددة، فلتجد طريقة جديدة للتكامل والاتحاد، بعيداً عن تكرار مأساة التاريخ وصراعاته.

وثمة حقيقة أبجدية في تاريخ المجتمعات البشرية، يجب إدراكها بعمق ووعي، هي حقيقة أن الأوطان أعم وأوسع وأشمل من الأديان، فالأديان تستوعب عناصرها، فإذا اختلف الدين انتقضت الروابط، واختلف السلوك والقيمة، فالمسلمون اخوة فيما بينهم، لكن أخوتهم لا تتعدى للمسيحيين، والمسيحيين اخوة فيما بينهم لكن أخوتهم الدينية لا تتجاوزهم إلى المسلمين أو اليهود، بل إن أصحاب المذاهب الدينية داخل الديانة الواحدة، يقيمون روابط من العلائق الخاصة فيما بين أتباع

مذهبهم، فإذا تغير المذهب اختلفت العلاقة وتغيرت المعاملة، وشواهد هذا كثيرة في تاريخ الإسلام، ومبثوثة في كل المجتمعات المسلمة، ومثلها في كل المجتمعات من الديانات الأخرى، وإذاً لو كانت العقائد وطناً، أو صحت هذه المقولة أو الاعتقاد، لغدت كل جماعة دينية وكل طائفة وكل مذهب ديني شعباً مستقلاً، وإذاً لفرزت الأمة إلى طوائف، وتوزعت الجغرافيا إلى مذاهب وطائفيات، لا يخالطها فيها غيرها، وهذه هي إشكالية الفرق والطوائف الدينية التي لا تزال اليوم ماثلة أمام أعيننا، وتتسبب في حروب وكوارث في المجتمعات العربية وفي اليمن على وجه التحديد، ذلك أن هذه الجماعات المذهبية والدينية اتخذت من معتقداتها العنصرية الضيقة أوطاناً، فصارت تقاتل ما دونها لكي تقيم لطائفتها أو مذهبها وطناً خاصاً، ولن تستطيع ذلك، ومن ثم فهي تفتح باباً من الحروب الدينية والطائفية لا ينغلق حتى ترمي بمعتقداتها في مقابر الزمن، أو تندثر تنظيماتها الطائفية والمذهبية.

وهذا بخلاف حقائق الأوطان التي تستوعب كل أبنائها، بغض النظر عن دينهم ومعتقداتهم وانتماءاتهم الطائفية والمذهبية والسياسية، وتساوي بين كل مواطنيها في الحقوق والواجبات، وأمام القانون، وتمنحهم فرصاً متكافئة، وتحقق لهم الأمن والسلام، وتمنع اعتداء شخص على شخص أو طائفة على أخرى بسبب المعتقد أو المذهب أو الانتماء، فيعيش كل المواطنين في ظل الوطن تحت سقف واحد، وأمام قانون واحد، هو قانون المساواة والمواطنة، دون تمايز ولا عنصرية ولا تفضيل بلون أو دين أو جنس أو نسب.

وفي ضوء ما سبق فإن قوميتنا اليمانية تؤمن بحرية التدين كحق طبيعي لكل إنسان في الحياة، لكنها في ذات الوقت تؤمن بوجوب احترام الأديان، وعدم جواز الإساءة لها أو لأصحابها ومعتنقيها، سواء كانوا أقليات أو أكثرية، كما أنها تفصل فصلاً تاماً بين الدين والسلطة، فالدين ارتباط روحي تعبدي بين الإنسان وربه، ومنظومة قيمية ومبادئ أخلاقية للحياة الفردية والعامة، لكنه ليس سلطة سياسية، ولا يحق لمذهب ديني أو طائفة أن تفرض على الأمة اليمانية مذهبها في شكل نظام سياسي، فالدولة والسلطة السياسية ذات طبيعة وظيفية مؤسسية تحقق المصالح العامة للجميع، وليست رؤية دينية لفئة أو جماعة أو طائفة أو مذهب، بل هي مؤسسة الشعب والأمة، تحفظ مصالح الجميع، وترعى الحريات والحقوق لكل مواطنيها دون تمييز لدين أو لون أو جنس، وإذ تؤمن القومية اليمانية بحرية التدين والفصل التام بين الدين والسلطة السياسية، فإنها تجرم أي فكر أو سلوك يفرض على الشعب والأمة معتقداته المذهبية والطائفية، في صورة سلطة سياسية أو اجتماعية.

أ- الوطن المقدس

اعتدنا عند ذكر مفهوم الأوطان أن تنصرف أذهاننا إلى المعنى القلبي الوجداني المحض، حتى صار الوطن في أذهاننا كتلة من المشاعر والأحاسيس، يمكن التعبير عنها بكلمات أو قصائد أو مدائح ثم ينتهي الأمر عند ذلك، وغالباً ما تتحدث نخبنا عن الأوطان باعتبارها مطلباً حقوقياً أو مادياً، وغاية ما يبتدعونه هو النضال من أجل عدالة توزيع السلطة والثروة، أو بالأصح من أجل اتاحة الفرص المتكافئة للنخب الفاسدة لنهب ثروات الوطن، لذا نجد تشرشل ينصح ديجول في معركة تحرير فرنسا من النازية قائلا: الوطن شجرة طيبة لا تنمو إلا في تربة التضحيات وتسقى بالعرق والدم".

إن الأوطان في مسيرتها الأولية تنبثق من رصيد الواجب لا من ثقافة الاستحقاق، وإذن فتكون الأوطان في نظرنا بمثابة البقرة الحلوب التي كلما شعرنا بالحاجة إلى اللبن أطعمتنا، وننسى أيضاً أنها لن تكون حلوباً حتى ترعى فتبلغ الانتاج والوفرة، وينعم كل أبنائها بالرخاء والاستقرار، فالوطن هو الأم التي ولدت المجتمع والشعب والحضارة، وليس الوطن جغرافيا المكان الذي يسكنه الإنسان فحسب، وإنما هو الوجود التاريخي للأمة ممثلة في عناصرها الثلاثة المكان والزمان والإنسان، وإذا كانت الأديان حاملة لقداسة الكلمة فإن الأوطان حاوية لقداسة الإنسان والمكان والزمن، فعلى ترابها تتبارك كل المقدسات، وتتعاظم كل الأحداث، وتتخلق كل المعجزات، ومن هنا فإن الوطن هو حقيقة الوجود الحضاري للإنسان عبر التاريخ، ومن لا وطن له لا وجود له، لذا اعتبرت المجتمعات القديمة السيارة مجتمعات غير حضرية، لعدم ارتباطها بأوطان محددة تعرف بها.

ولا يزال الوعي اليمني في مسألة الوطن والوطنية ضمير الغائب كونه ولد في لحظة الانتقال متأثراً وناقلاً عن بيئة العقل العربي التي لا تعير المسألة الوطنية اهتماماً كبيراً، تبعاً للتوجهات الأيديولوجية الأصولية التي تقدس الخلافة الدينية العامة، أو القومية التي تتجاوز التفسير التاريخي الواقعي للأوطان، ويكاد يخلو ميدان النضال الفكري والثقافي اليمني من أطروحات مؤصلة للقيمة الوطنية كقيمة مؤسسة للوجود الحضاري للأمة اليمنية، فغالباً ما تتجاوز المشاريع والأطاريح الثقافية هذا المستوى إلى مستوى متعالٍ محلقة في المثاليات المنقولة عن البيئة العربية والإسلامية، وهذا ما جعل أمتنا اليمنية في ظرفها الراهن تبدو كفكرة مستنسخة من البيئة الاقليمية، غير قابلة للتطبيق في ميدان الاجتماع الوطني على مستوى الوجود التاريخي والحضاري للمجتمع اليمني.

إن الفكرة الحضارية أياً كانت لا تستطيع التعبير عن الإنسان ومعالجة مشكلاته ما لم تكن جزءاً من بيئته الاجتماعية والثقافية والتاريخية، فحينما تدخل نطاق اهتماماته يستجيب لإيحاءاتها سلباً أو ايجاباً، تبعاً لمشكلاته النفسية، وقوة حضورها في الذهن والواقع، إنه يشعر أنها جزء من كيانه الفردي والاجتماعي، ويتوجب عليه أن يحدد إزاءها موقفاً سلوكياً يستحضره في كل أحواله، والفكرة التي لا ترتبط بوطن فكرة مثالية عائمة، غير قابلة للتحقيق، ذلك أن الفكرة لا تمتزج بالإنسان وحركته الدينامية وعلاقاته التصاعدية مالم تكن معبرة عن روحه وذاته وواقعه وبيئته، باعثة لطموحه وأمجاده، وما لم توطن الفكرة فإنها تبقى في ذهن المجتمع من قبيل العارضة التي لا تستدعي أن يجيب عنها بوعي، ويمكن أن نشاهد المجتمع اليمني وهو يقدم التضحيات في سبيل نشر رسالة الإسلام خارج نطاق الجزيرة العربية، لكنه لا يتحقق بشروط الاقلاع الحضاري في ظل الفكرة الإسلامية كونها لم تصبح بالنسبة له فكرة وطنية يستعيد بها وجوده الحضاري، كما فعلت بلاد الشام والرافدين ومصر التي انتقلت إليها عاصمة الخلافة.

كما أن الاعتزاز بالقيمة الوطنية يمنح المرء قيمة وتقديراً عالياً لذاته في أي بلد وأي مجتمع يعيش فيه، فقيمة المرء دائماً من قيمة وطنه، فالعامل الأوروبي أو الأمريكي يأخذ أجراً يومياً قد يفوق أجر مئة عامل عربي، ولو تساوى معهم في التأهيل والقدرات، ليس لأنه يفوقهم خبرة وحنكة، ولكن لأن مكانة بلده ودولته بين الشعوب أكسبته قيمة مادية ومعنوية عليا بين أقرانه، وقد يلحظ المرء وجود فوارق في أجور الموظفين تبعاً لاختلاف بلدانهم، رغم كونهم يعملون في قسم واحد، وفي منشأة واحدة، وبنفس المؤهل والاختصاص، فالعامل اللبناني أو الأردني – مثلاً- يعمل بالدولار، بينما العامل اليمني بنفس المهنة وبخبرة أكبر وناتج أكثر لا يتقاضى عشر ما يتقاضاه الآخر، فالأول منحته دولته قيمة من خلال ثقلها السياسي، وتعاملها الدبلوماسي مع الدول الأخرى، بينما نخبة اليمن الفاشلة حولت الوطن إلى مستنقع لصراعات الإقليم.

وإذا كانت الايديولوجيات المتجاوزة والعابرة غير قابلة للتوطين لتغدو روحاً جمعية للأمة، فإن الخبرات الجماعية تشكل مجموعةً من التقاليد التاريخية، التي تغدو جزءًا من النسق العَقَدِي، المؤثر على مسار السياسات الداخلية والخارجية، وتدعم الأنساق العَقَدِية الموطنة، الوَحدة الوطنية للدولة؛ وتُعَد من العوامل المهمة في تطور القومية والهُوية الوطنية المستقلة؛ لذا عمد (نهرو) لتمجيد الإمبراطورية الهندوسية القديمة، وركز (موسوليني) على نجاح الإمبراطورية الرومانية، وعظم (ديجول) أمجاد فرنسا الماضية في محاولة لبناء الشعور بالفخر والاعتزاز الوطني،

كما حاول عبد الناصر أن يسلك هذا المسلك الوطني باستدعاء الذاكرة المصرية القديمة.

والحق أن الأوطان ايديولوجيا قائمة بذاتها من خلال خبراتها التاريخية التراكمية التي استوعبت وجودها الجمعي، وهي ايديولوجيا قائمة على مبدأي الوطن كقيمة مقدسة والمواطنة كمنهج وسلوك وشبكة علاقات، ومنهما تتفرع منظومة القيم الاجتماعية الناظمة للدولة والمجتمع، غير أن البعض توهم قدرة الأفكار والعقائد المتجاوزة للأوطان على خلق وحدة عضوية بين المجتمعات والدول التي تؤمن بذات الأفكار والمعتقدات، حتى صار بعضهم يطلق على مجموعة الدول الاشتراكية (العالم الشيوعي) ومجموعة الدول الرأسمالية (العالم الحر)، وهذا من قبيل الخيال والافتراض لا أكثر، إذ لا يمكن بحال أن نرى وجود مجتمعات لا تمتلك مبررات وجودها الاجتماعي والثقافي والتاريخي، ولو وجدت، فهذا يعني أنها لا تزال تفريعات من مجتمعات أخرى، ورغم ذلك فإنها ستتجه مع الزمن لخلق مبرراتها الثقافية الخاصة، ومن ثم تصوغ شخصيتها التاريخية المستقلة بصفة ثابتة ومستقرة، ذلك أن المجتمعات التي تفقد مبررات وجودها تسير في طريقها إلى التحلل والذوبان، كونها تفقد المنبع الرئيس لطاقتها وحيويتها، ومن ثم تبلغ بها عوامل التعارض الداخلية قمتها، فتنتهي إلى وعدها المحتوم، ومصيرها بعد زمن أن تندمج أو تذوب في مجتمعات أخرى.

ومن هنا تسعى الدول الطامعة إلى تدمير دول أخرى على المدى الطويل، عبر تدمير هوياتها التاريخية، لكي يسمح لها ذلك الوضع بالتمدد والتوسع على حساب تلك الدول والمجتمعات المتهالكة، وحينما يصاب مجتمع ما في تاريخه وفي ثقافته وهويته فأعلم أنما يراد له أن يتهالك فينمحي من الوجود، أو يقبل الذوبان والتماهي في مجتمع آخر بديل لشخصيته التاريخية.

والأمة اليمنية منذ ألف ومئتي عام وحتى اللحظة تتعرض لمحاولات تدمير ممنهج لهويتها الثقافية وتراثها الحضاري، مع اغراقها بسيل من الأفكار والثقافات الدخيلة الوافدة، التي تمزق عالمها الثقافي إلى مذهبيات وطائفيات مغتربة، تنتج الفوضى والصراع والعنف المستمر، وهو ما تسبب في غياب الفكرة الوطنية في فترات متقطعة عن ذاكرتها الجمعية، وضميرها الإجتماعي، فجعلها تبدو كأمة تائهة، وكأنما تقلب وجهها في السماء بحثاً عن وجهة توليها، وهذا هو سر التخبط الذي مني به تاريخ أمتنا اليمنية المعاصر، منذ ثورة ٤٨م، فالنخب الثقافية والسياسية في اليمن لم تجهد نفسها في إعادة بعث وإنتاج هوية المجتمع والتاريخ، بقدر ما سارعت إلى استيراد سرديات أيديولوجية مشرقة أو مغربة، وهذا ما أمكن للقوى الظلامية وبدعم ووصاية خارجية أن تعيد انتاج خرافاتها الإمامية وسلالتها العنصرية الغازية، لتتقاسم

السلطة مع نخبتنا الثورية التائهة بضغط خارجي، وأنى لمجتمع يعيد إنتاج فترات ظلامه بنفس أدواتها أن يفارق تخلفه إلا بثورة تحرر جذري من الخرافة والسلالة!

إننا لو حاولنا أن نتتبع مسيرة الأمة اليمنية المعاصرة، لوجدنا أنها في كل مرة تحاول فيها استعادة هويتها وبعث أمجادها، تتعرض لهزات عنيفة، ولطمات موجعة، وكأنما يقال لها تناسي كل شيء عن ماضيك!

وعلى الرغم من ذلك يمكن أن نشاهد أن كل مرحلة يحقق فيها المجتمع خطوة باتجاه الهوية والوطن والدولة، كانت تقف وراءها فكرة وطنية في صورة مشروع أو قائد، فمدرسة التنوير الفكري التي عرفها اليمنيون في عصر محمد بن علي الشوكاني كانت نتاجاً لثورة الحسن الهمداني ثم المطرفية ونشوان الحميري، وثورتي سبتمبر وأكتوبر كانتا نتاجاً عملياً للحركة الوطنية التي ظهرت كحركة مقاومة للإمامة والاستعمار معاً، وسرعان ما اكتسبت مضمونها الفكري الوطني من التاريخ والواقع معاً.

والقفزة النوعية التي حققتها اليمن في زمن الحمدي وسالمين كان سرها العميق هي الدافعية الوطنية ممثلة في حلم الوحدة الوطنية، فهي التي استنهضت همة الإنسان اليمني، وفجرت قواه الحية، فاندفع يقدم التضحيات ويبذل الجهد ليحقق مصالحه العامة، واندفاع اليمنيين بعد الوحدة في عام ٩٠م بكل وسائلهم وامكاناتهم، لم يكن وراءه سوى فكرة الطموح الوطنية التي استلهمها الإنسان اليمني من قيمة الوحدة.

وفي كل مرة تتراجع فيها الأمة اليمنية القهقرى فإنما ينطق تراجعها بخيانة عظمى لعالم أفكارها التاريخية والثقافية، ومشروعها الوطني المستقل، فينقلب حلمها التاريخي إلى أشباح ليل تتصارع على قتل طموحها وسحل مستقبلها، حينها تعاود السكون بحثاً عن فكرة جديدة ملهمة لوجودها الوطني، ولقد آن الآوان لأمتنا العظيمة أن تضع هذه البضاعة العفنة جانباً، وأن تستعيد هويتها الحضارية وذاتها المستقلة، للتخلص من عوائق النهوض، وأثقال المقابر.

إن القومية اليمانية هي حقيقة الوطن المقدس، المتجسدة في التاريخ والإنسان والأرض، وإذا كانت بعض البقاع في الأرض قد اكتسبت قداستها من بعثة نبي فيها، فإن اليمن مقدس تاريخي ائتلفت فيه روح الوحي وروح التاريخ، فهو أقدم مكان على وجه البسيطة اتصل بالسماء، وهبطت فيه الديانات، ورفعت فيه معابد التوحيد، وعبد فيه الإله الأوحد(رحمن ذي سماوي)، كما أنه أول مجتمع في التاريخ يبدع حضارة بشرية توحيدية، وإذاً فإنه الوطن الأكثر قداسة على ظهر الكوكب، ولقد كانت الحضارات القديمة في الشرق تسميه بلد الآلهة، أو بلاد (بوينت) كما في النقوش

الفرعونية، وهي تعني البلاد المقدسة، وعلى غرار معابده التوحيدية ابتنت الحضارات القديمة معابدها.

إن الإيمان بقداسة الأوطان هو الضامن الحقيقي لاستقلالها واخراجها من الوصاية والتبعية والتدخلات الشرطية الخارجية، فالأمة التي لا تقدس وطنها وتاريخها وحضارتها، يهون عليها خيانة مبادئها ووجودها التاريخي، فتتقبل أن تُسيَر من خارجها، وأن تفتح وطنها ملعباً للصراع الفكري والسياسي، وأن تُستَأجر لقتل بعضها مقابل أن تأكل وتشرب، وربما ذهبت نخبتها أو بعضها لإعطاء الولاء لدول خارجية لتسهم في صعودها لمنصب ما، على أن تظل خادمة لسياسات الخارج، وأداة في تحقيق مصالحه وطموحاته، ولو على حساب أمن وطنها واستقراره، وهذا ما هو حاصل في وطننا المنكوب بمثل هذه النخب المصنعة على أنظار الخارج، والقائمة على خدمة مصالحه.

إن ايماننا بقداسة وطننا الحضاري وعظمة أمتنا اليمنية لهو الطريق الأوحد لبعث ذاتنا، واستعادة وجودنا الفاعل بين الأمم، والخطوة الأولى على طريق تصحيح مسارنا القومي والوطني، والتخلص من مظاهر العلل والأمراض الاجتماعية القاتلة، كأمراض الخيانة الوطنية، والارتباطات المتعدية، والولاءات الخارجية القاتلة التي قضت على مشروع أمتنا الوطني التحرري ممثلاً في ثورتي سبتمبر وأكتوبر، وحولته إلى مجرد ميدان للصراع بين أدوات خارجية ومليشيا مستأجرة، اعادت انتاج عصور الظلام والكهنوت، ودعمت عودة السلالة الهاشمية المحتلة بميليشياتها الحوثية التي تسعى جاهدة لجعل اليمن إقطاعية ايرانية.

لقد جهلت نخبتنا السياسية فيما مضى حقيقة الوطن وقداسته، وتغافلت عن هويته وتاريخه، ظانة أنها استعاضت عن الماضي والتاريخ، بأفكار الحداثة الوافدة المنتزعة من بيئة التيه العربي، فصنعت بذلك دماراً هائلاً في ثقافة المجتمع، وتدميراً كلياً للقيم الوطنية، تمثل ذلك في قابلية الأجيال اليمنية الحديثة والمعاصرة لفكرة التلقي والتسيير الخارجي، تبعاً للفكر السياسي الوافد المتعدد، فصارت كل فئة تتلقى وتستورد من حيث استوردت فكرها السياسي، ثم تعدت ذلك حينما شعرت بالاحتياج المادي في مضمار الصراع السياسي، فباعت ولاءها لمن يشتري، ومع ذلك تم بيع الوطن والكرامة والمواطن والشعب والدولة، وها هو الواقع اليوم يشهد بالمأساة التي تسببت بها الجهالة والغباء السياسي، وافراغ المشروع الوطني من قيمه القومية والتاريخية، ولقد رأينا فيما مضى، وحالياً كيف تتسابق النخب السياسية والقبلية والمثقفون والأحزاب والجماعات للبحث عن ممول خارجي يتقاولون منه طموحاته في اليمن، مقابل فتات من المال، فكانت النتيجة أن صار الوطن ممزقاً مفتتاً موزعاً بين قوى النفوذ الخارجية، وأجرائها في الداخل.

إن دعوى الإمامة والبطنين والهادوية والهاشمية احتلال تاريخي قرشي فارسي، مناف لقيمة الوطن وقداسته واستقلاله، ويجب أن يزول من أرض سبأ وحمير، وإن الأفكار الأيديولوجية المتعدية للأوطان بوابة للوصاية والتدخلات الخارجية، والارتباط بغير الأوطان ومصالحها خيانة للولاء الوطني، والتلقي عن غير هوياتها وتاريخها وذاتها الحضارية ورصيدها الثقافي عمالة وارتهان، كما أن الرشوة والفساد وسرقة الأوطان والإثراء على حساب الأمة ومصالحها، والغش في المعاملات العامة، وتقديم الأقارب على حساب الكفاءات الوطنية، كل هذه وغيرها من الجرائم الكبرى بحق الوطن المقدس، فهي تسدي خدمات للأعداء على حساب الوطن واستقلاله وبناء دولته المستقرة الناهضة، وهي أعمال وسلوكيات تتنافى مع الروح القومية لأمتنا اليمنية، وتتنافى مع قيم الانتماء والولاء الوطني، وإن ادعى القائمون عليها وبها أنهم وطنيون، فإنها فاسخ أكيد لدعاوى وطنيتهم الزائفة.

إن الوطنية التي نؤمن بها، ونسعى لتحقيقها، ليست شعاراً يردد، ولا مقالاً يكتب، ولا وصفاً يمتدح، ولا منصباً يقلَد، وهي ليست مدحاً للحاكم والطبقة السياسية حوله، فهم ليسوا سوى موظفين لدى الوطن، بل هي تقديس الوطن ومصالحه، وجعلها فوق كل الاعتبارات، وتقديمها على كل الضرورات الخاصة، إنها الايمان بالوطن، والذوبان فيه، والولاء له، والانتماء إليه، والدفاع عنه، والتضحية من أجله، وحماية مصالحه، وخدمة مواطنيه، وتحقيق نهضته، وحماية استقلاله، والحياة والموت لأجله، فهذه هي الوطنية، وما سواها تزلف وفراغ.

ب- التاريخ المقدس

لكل أمة قصة خلق مقدسة تحكي ولادتها في التاريخ، وتكتسب أسطورة الخلق لكل أمة صفة القداسة، من خلال ارتباطها بالآلهة التي تشكل ارادتها غالباً انبعاث الأمة وظهور الدولة، وكلما أوغلنا في تاريخ الحضارات والدول القديمة والأقدم ، نجد أثراً واضحاً لأسطورة دينية أو عقيدة تألهية تشكل روح الشعب والأمة، ولا يزال علم الآثار يكشف كل يوم عن بقايا للإنسان القديم خصصها للعبادة والشعائر والطقوس الدينية، بغض النظر عن شكل تلك الطقوس ووجهتها، حيث يكاد الدين أن يكون الوسم العام لتخلق الأمم والحضارات، والباعث الأول لميلاد الدولة في التاريخ.

ولا تقف الشعوب والأمم عند مجرد التأصيل الروحي لحضاراتها ووجودها التاريخي، بل تذهب إلى إضفاء القداسة على تاريخها، من خلال تقديمه روحاً علوية متصلة بالعالم الغيبي، عاكسة لإرادته في ميدان الحياة البشرية، فالدولة تمظهر لقوة الإله وإرادته، والملوك نماذج لتلك القوة، والقانون شريعة الإله، والأخلاق سموها، والمصائب غضب الآلهة، والخيرات والأرزاق رحماتها، وجماع ذلك كله يتجسد في النظام الاجتماعي الذي هو التطبيق العملي لرغبة الإله وتعاليمه.

على هذا النحو أو قريباً منه نسجت كل الأساطير التكوينية للأمم والشعوب في التاريخ القديم، وذهبت بعض الشعوب قديماً إلى تسمية الآلهة بأسماء حضاراتها أو ملوكها، ففي الأسطورة السومرية التي تتحدث عن قصة الخلق والتكوين، في الألف الرابع (ق.م) كان اسم الإله الأكبر (أنليل)، ويعني إله الريح، فلما تبناها الأشوريون ظهر اسم الإله أشور مكان أنليل، وهي ذات الفكرة التألهية، إنما تحاول كل أمة أن تدَعي الانتساب للإله دون غيرها، فتتخذ من الإله صفة لها لتقديس تاريخها الحضاري ووجودها القومي، كما فعل بنو إسرائيل حينما أطلقوا على الله تعالى مسمى (إله صهيون)، وهو في الحقيقة إله البشرية جميعاً، لكن الشعوب في التاريخ القديم كانت تنزع إلى إضفاء القداسة على تاريخها بأسلوب يكسبها صفة التميز والمغايرة لغيرها من الأمم.

وقد ذهبت بعض الشعوب في التاريخ القديم إلى اكساب ملوكها صفة التأليه لتضفي على تاريخها الوسم المقدس، ومن ذلك أن أسطورة التكوين البابلية تجعل بدء الخليقة إلى إلهين، إله السماء وتسميه (أنشار)، وإله الأرض، وتسميه (كيشار)، غير أن إله الأرض ابن إله السماء، ما يعني أنهم يقصدون لحظة تأسيس مملكتهم الأولى، ويحاولون أن يكسبوا الملك المؤسس الأول لها صفة المقدس بوصفه إلها أو ابناً للإله.

وليس هذا الشكل ببعيد أيضاً عن الحضارة الفرعونية التي كانت تقوم على أسطورة أن مصر مهبط الآلهة، وأن نهر النيل متصل بالسماء، وأن الملك منيا ابن للآلهة، وذهب بعض الفراعنة المتأخرين في عهد موسى إلى ادعاء الألوهية، وما ذلك إلا محاولة لإضفاء صفة القداسة على الدولة وقوانينها والتاريخ.

وبالمثل نرى الأسطورة الفارسية الزرادشتية التي كانت تمثل الدين الرسمي للإمبراطوريات الأخمينية والبارثية والساسانية تقوم على المثنوية في تصورها للألوهية، فالإله (أهورا مزدا) إله الخير يقابله (آهرمان) إله الشر، ومن خصائص (أهورا مزدا) خلق الطبيعة والنار، فهو إله النار، ومن نسله جاءت سلالة الملوك، ومنهم الملك كورش الأكبر، فهو ابن إله النار في ثقافة الفارسيين.

وذهبت بنو إسرائيل إلى جعل تاريخهم السياسي برمته جزءاً من المقدس الديني، حيث تحتوي أسفار التوراة على تاريخ أنبيائهم وملوكهم والأحداث التي تلت عصر الأنبياء والملوك إلى سبي بابل وما بعد سبي بابل، بحيث تظهر أحداث التاريخ اليهودي وكأنه جزء من المقدس الديني.

وإذا كانت الأمم القديمة قد سعت لتخليد تاريخها من خلال اكساب ملوكها وأنظمتها صفة المقدس الكوني والديني، فإن الأمة اليمانية تجاوزت هذه العقدة إلى تقديس الفعل الحضاري ذاته، فالحضارة اليمنية ليست حضارة آلهة ولا متألهين ولا أبناء آلهة، ولكنها حضارة قيم إنسانية عليا تكسب الإنسانية صفة التكريم والرفعة والخلود البشري، فنحن لا نرى في تاريخ اليمن الحضاري تقديساً للملوك وإنزالهم منزلة الإله، كما لا نرى ملكاً يدعي بأنه ابن الإله، لكننا نجد ارتباطاً روحياً بين الملوك وبين الله الخالق (رحمن)، فأسماء الملوك (كرب ايل – يدع إيل – شرح إيل) تعني القريب من الله، والداعي لله، ويطلق على الشعب شعب (ألمقه) يعني شعب إله الشمس، بمعنى أنه شعب متأله مرتبط بالسماء، لكننا لن نجد على الإطلاق ملكاً من ملوك اليمن العظماء إدعى لنفسه الألوهية، أو زعم أنه ابن الله كما فعل ملوك بابل وفراعنة مصر وملوك فارس وغيرهم، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الأمة اليمنية تجاوزت تقديس الأشخاص إلى تقديس الأفكار، فجعلت من الفعل الحضاري ذاته فعلاً مقدساً، بينما الملوك والتبابعة أمناء على التاريخ والحضارة.

وإذا كانت الأمم تبدأ خط سيرها الحضاري من صناعة الرمزية المقدسة للأشياء، كما في الحضارات الوثنية الأولى، إلى تقديس عالم الأشخاص، كما في حضارات بلاد الرافدين والنيل، والأمتين اليهودية والمسيحية، فإن الأمة اليمانية من لحظتها الحضارية الأولى في الألف الرابع ق.م، تعانق عالم الأفكار، فلا تقديس للأشياء ولا الأشخاص، وإنما التقديس لعالم الأفكار وحده، فكرة التوحيد، وفكرة الحضارة،

وفكرة التاريخ، وفكرة الأمة الواحدة، وفكرة النظام، وفكرة الديمقراطية، فهي أمة لا تعبد الأصنام، ولا تقدس الأشياء، وليس في قاموسها تقديس للملوك، ولا مبالغة في وصفهم فوق مستوى الإنسانية والبشرية، فهم ليسوا أبناء آلهة كما في الحضارات الأخرى، وليسوا نواباً عن الإله، بل هم حكام للأمة، تختارهم وتنتخبهم عبر مجلسي الأذواء والأقيال، فإذا أخطأوا اجتمع الأقيال لإقالتهم، واستبدالهم بالأصلح للملوكية العليا، وهم لذلك سموا أنفسهم تبابعة، أي الملوك المتتابعين وفق نظام ديمقراطي واضح ومحدد، واذاً فالقداسة في تاريخ أمتنا اليمنية ليست للأشخاص، بل للروح القومية الجمعية الموحدة للأمة، والأمجاد الحضارية المخلدة لتاريخها وآثارها، وهو ما يميز أمتنا العظيمة عن غيرها من أمم الأرض، ويضع أمامنا خطة بعث ونهوض متجدد، يقوم على تقديس الروح القومية المتجددة، والذات الحضارية الناطقة بروح الأمة اليمنية الواحدة، تلك الروح التي تتجاوز عوامل الاختزال، ونزعات التفرق، إلى وحدة الأمة بمقوماتها الأرض والتاريخ والثقافة والروح النضالية.

إن تقديس الأمم والشعوب لتاريخها الحضاري جزء أساسي من خطة النهوض في كل مراحل تجددها، ذلك أنها تودع في التاريخ رصيد خبرتها الأساسية، فالأمم لا تولد في مراحل التاريخ المتكررة كولادتها الأولى، وإنما تبعث بعثاً من مقابر الزمن، وفي لحظة البعث تحتاج إلى نفخة الصور التي تعيد إليها الروح التاريخية، فتتجدد لها الحياة، وما نفخة الصور في تاريخ الأمم سوى استذكار روحها الحضارية الأولى التي دونت فيها تفردها وحضورها بين الأمم.

والأمة التي لا تقيم اعتباراً لتاريخها وهويتها الحضارية في خطة بعثها وتجددها في التاريخ، إنما تضع نفسها على طريق الاستنساخ من غيرها، فهي أمة تتخبط في دياجير التيه، تشرق وتغرب، تمر بها فرص التاريخ كما تمر لحظات النهار والصباح العليل على النائم في سباته، فغاية ما يمكن أن يدركه في منامه حلم جميل في الخيال لا سند له في الواقع.

أو هي كطفل أصيب بداء ضمور الذاكرة، فنمى جسده، ولم يبارح عقله سن الطفولة، فهو يلهو ويلعب مع الأطفال ولا يستطيع مخالطة مجتمع الراشدين، وتمر عليه فرص الحياة وهو عاجز عن الاستجابة لها بسبب تأخر تفكيره وضمور عقله.

إن لكل شعب وأمة من فرص الحياة بقدر ما لها من فرص الهلاك والتخلف، ولها من أوقات الإشراق، كما عليها من أوقات الظلمة، ولكي تستفيد الأمم من لحظات نهارها، يتوجب أن تتجاوز سن الطفولة حينما تبادرها لحظات الاشراق، وتتحقق بشروط البعث التاريخي المتجدد، وهي لن تتحقق بشروط البعث حتى تستعيد ذاكرتها التاريخية، وتتزود من رصيد تجربتها الناجحة في التاريخ، فما رصيد التجربة

بالنسبة للأمم إلا كعودة الذاكرة بالنسبة لشخص فقد ذاكرته بسبب أزمة نفسية، والأمة التي لا تستعيد ذاكرتها ولا تستمد من التاريخ خبراتها في لحظة تجددها، إنما تمارس التنويم المغناطيسي على ذاتها المخدرة، في كل مرحلة من مراحل التاريخ، ولو قامت بألف ثروة وثورة فإنها لا تخرج من حالة التخلف والسبات العميق الذي يعالج أحلامها الطفولية المتأخرة.

إن روح التاريخ في كل أمة هي من تقرر خطة الانبعاث المتجدد والنهوض الحضاري، لأنها تحمل روح الأمة وضميرها الجمعي، كما تحمل روح التجربة الناجحة، والشخصية الحضارية المستقلة للأمة، ولقد رأينا كيف تفتش الأمم والشعوب في تاريخها الحضاري عن خطة نهضتها المعاصرة، فالصين الكبرى حينما قررت الاستقلال عن الاستعمار الياباني ووصاية الإنجليز، عادت لتحييَ قيم كونفشيوس، وذكريات امبراطورية ووهان الموحدة، واليابان بعد أن خلفتها الحرب العالمية الثانية دماراً، تستدعي عهد الإمبراطورية الأولى بعد الميلاد، حينما اكتشف اليابانيون حروفاً للكتابة تميزهم عن استعارة النمط الثقافي الصيني والبوذي، وكل أمة ترسم خط عودتها وفقاً لمعطيات التاريخ والتجربة الذاتية، ولن يستطيع أي مجتمع التعبير عن وجوده الفاعل، ما لم يتمكن من إثبات ذاته الحضارية، وقيمته الوطنية أولاً بكل عناصرها (الإنسان والتراب والزمن).

هذه باختصار هي ركائز القيمة الوطنية الباعثة للوجود الحضاري لأي مجتمع وأي أمة، وبدونها يبقى المجتمع والأمة مجرد تجمع كبير في مقابر الزمن بلا مشروع حياة، فليست القيمة الوطنية إذن مجرد عاطفة شعورية، وليس التاريخ مجرد ذكريات، بل هو القانون العام الذي ينسج عليه مجتمع ما وجوده الثقافي، وخطة بعثه الحضاري، فالثقافة الاجتماعية تتشكل من خلال القيمة المجمعة للوجود التاريخي للمجتمع، وهذه القيمة لا يمكن أن تكون شيئاً معنوياً مجرداً، بل هي الروح الحضارية التي تمنح الأمة معرفة ذاتها وحقيقتها، ومن دونها تظل تتسكع على أبواب الدول والحضارات، كفاقد الذاكرة حينما يتسكع على أبواب الناس دون أن يشعر أنهم يزدرونه، بينما يضحكون لحالته.

إن نضالنا القومي اليوم نضال مقدس يتجه لتحرير أمتنا اليمنية العظيمة من الاحتلال الهاشمي العنصري المتدثر بالدين المزيف، وخرافة الآل والعترة والبطنين والحق الإلهي، تلك الخرافة التي حاولت استعباد الأمة اليمنية في لحظات ليلها، بالخديعة والتجهيل، تحت مسمى المذهبية والطائفية، وإنها لأكبر الكبائر وأجرم الجرائم، أن نرى أمتنا العظيمة التي أبدعت أول وأعظم حضارة في تاريخ البشرية، تخدع من عصابة سلالية كهنوتية لا تاريخ لها ولا حضارة ولا وطن، لفيف من شذاذ الآفاق، تلبست لبوس الدين، وأكذوبة وراثته السلالية، مستغلة هجعة السكون

لأمتنا العظيمة، لتوحي إليها في لحظة سبات أن الله سيَّر لها السيادة والشرف، وأن على الأمة اليمانية العظيمة أن تسلم بخرافة القداسة والتفضيل لشذاذ الآفاق دون اعتراض.

لقد استعصت روح الأمة اليمانية أمام امبراطوريات كبرى، كالرومان والحبشة وفارس، وقاومت كل أشكال الغزو العسكري والثقافي، فكسرت اندفاعاته، وهي في لحظة تراجع حضاري وتخلف عن أدوارها التاريخية بعد أن تفرقت أيادي سبأ، وفي العصر الحديث خرج المستعمر البريطاني يجرُ أذيال الهزيمة، بعد قرن ونيف من الزمن، أفتقبل أمتنا بقاء احتلال عصابة من شذاذ الآفاق وكهنة بني هاشم؟

إن الروح القومية التي صنعت أمجاد الأمة اليمانية في التاريخ، لتدعونا اليوم لتحرير هذا الوطن العظيم من هذه السلالة الغاصبة، والكهنوت الزائف، كخطوة أبجدية على طريق البعث القومي واستعادة الأمجاد التليدة، وإنه لأقدس نضال على وجه الأرض، أن تتحرر أول أمم الأرض، مبدعة الحضارة والتاريخ، من وهم الخرافة، وعنصرية السلالة، وأن ترمي هذه القاذورات عن نفسها، لتتهيأ لبعث تاريخي جديد.

الفصل الثالث: الأصول القيمية

م١: روح الأمة اليمانية

م٢: الخرافة القرشية والأكذوبة الهاشمية

م٣ القومية والتراث

م٤: المثالية القيمة

م٥: عقيدة الفداء القومي

م١: روح الأمة اليمانية

- **روح مؤمنة**

تتصف الأمة اليمانية بأنها أمة مؤمنة، لا تعرف طريق الشك، بل يحدوها اليقين في كل تصوراتها وأفكارها، وهي طبيعة الأمم العظيمة في التاريخ، تنبثق من خلال الروح، ويدفع بها إلى دورة الحضارة إيمانها الذي لا يرتد، ويقينها الذي لا يزعزعه الشك، فهي تستجيب لنداءات الروح، وتندمج بها، فتغدو روحاً مطابقة لروح الوجود، وكأنها حقيقته الأولى، فإذا كان للوجود الكوني حقيقة روحية سابقة للوجود المادي، فإن روح الأمة اليمانية التي لا تعرف طريقاً إلى الشك تشكل جوهر الوجود التاريخي ومادته الأولى.

إن منهج الشك مبنيّ على إنكار الواقعيات والحقائق، واعتبارها مدخلات للاختبار الحسي يحكم عليها العقل بالحس أو التجربة والبرهان، وهذه الطريقة تسمى بمنهج الشك (الديكارتي) أو السفسطة اليونانية، وهي تعني صورة التردد وانكار مقدرة العقل على إدراك الأشياء والأفكار الخارجية والحكم على صحتها وصوابيتها، ومن ثم يقدم الشك في كل شيء على اليقين، وقد صيغت هذه الفكرة في عبارة معاصرة للفيلسوف "برتراند راسل" الذي تزعم موجة الشك في الحقبة الحديثة، حيث يقول: "الإنسان مقياس كل شيء، فهو مقياس أنّ الأشياء الموجودة موجودة، وأن الأشياء غير الموجودة غير موجودة"، وفي معنى ملازمة الشك لتلك النوعيّة من التفلسف، يقول زكي نجيب محمود: "بملاحظة تاريخ الفلسفة يتبيّن لنا أن نوع الفلسفة الذي يعتمد التفكير الذاتي، أعني: تفكير الإنسان في نفسه وعقله فقط يعقبه دائماً الشك؛ ذلك لأنّ المعرفة هي علاقة بين العقل والشيء الخارجي، فإذا اقتصر الباحث على النظر إلى عقله ونفسه مهملاً ما في الخارج؛ أدّاه ذلك إلى إنكار ما في الخارج من حقائق".

وبهذه الرؤية الشكية اللاأدرية كانت ردة فعل بعض الأمم في التاريخ، تجاه رسالاتها السماوية، وأنبيائها، وتجاه الأحداث التي تواجهها، فبنو إسرائيل يتشككون من صوابية وجهتهم مع موسى رغم ما حشد لهم من الاثباتات والمعجزات، فيشككون في قدرته على انقاذهم، ويتهمونه بخديعتهم ليعرضهم لبطش فرعون، وما إن تركهم برهة حتى تخلوا عن ايمانهم بربهم، وعبدوا العجل من دونه، فلما عاد ليعاتبهم فيما آتوا طلبوا منه رؤية الله جهرة ليتحقق ايمانهم، فكان لا بد أن يستخدم في حقهم أسلوب التعنيف والتهديد، فنتق الله الجبل فوقهم كأنه ظلة.

وقوم عيسى وهم الأرق من قوم موسى، يطلبون لتصديقه، والايمان بما أنزل عليهم، مائدة من السماء، تكون دليلاً مادياً محسوساً على ايمانهم بالغيب، وقريش تطلب من محمد(ص) أن يدعو ربه أن يمطر عليها حجارة من السماء.

لكن الأمة اليمانية منذ فجر تاريخها الأول، تستجيب لنداء الروح دون تردد، وبيقين منقطع النظير، وتتكرر استجابتها بنفس المقدار من اليقين والإيمان، في كل مراحل التاريخ ومنعطفاته، فتؤمن برسالة يلقيها عصفور في محراب عرش مُلكِها العظيم، وما تلبث أن تتحرك بثقلها لإبلاغ الرسالة الجديدة للعالمين، فتأخذ المهمة التاريخية عن الأمة التي بعثت فيها الرسالة، إذ لم تكن تلك الأمة جاهزة لتبليغها، فاختطفت الأمة اليمانية المهمة التاريخية، وبقيادة الملكة العظيمة بلقيس تحركت لفتح افريقيا، وأسكنت من قوم قحطان قبيلة حبشت في أرض افريقيا، فتسمت باسمها، وحملت لغتها ووسمها الحضاري، ولا تزال الحبشة حتى يومنا هذا تعتقد أنها من نسل الملكة بلقيس، ولها نصب عظيم، وأن السلالة التي حكمت إثيوبيا حتى عزل آخر حكامها هيلا سيلاسي الأول في عام ١٩٧٤- تعود لملكة سبأ، وما ذاك إلا لأن الامبراطورية السبئية العظمى انطلقت لنشر الديانة السماوية ديانة سليمان، وفق شروطها الحضارية الخاصة بالأمة اليمانية، فدانت الممالك للامبراطورية ذاتها، فيما خفت وجود بني إسرائيل بعد سليمان وانزوى في حدود أورشليم.

وقبل ذلك بألف عام على الأقل كما روى المؤرخون العرب القدامى ونقل عنهم ابن كثير، تواردت الأخبار إلى الملك الأعلى ذي القرنين الهميسع بن وائل، والملك وائل بن الغوث، أن إبراهيم - عليه السلام – يبني بيتاً لله في وادٍ غير ذي زرع، فانصرفا إليه بمكة، وسألاه من أمرك بهذا، وكان إذ ذاك يرفع القواعد مع ابنه إسماعيل، فأخبرهما أن الله أمره بذلك، فصدقاه وآمنا برسالته. ومما لا شك فيه إن الإمبراطورية السبئية هي التي تولت إبلاغ دعوة إبراهيم لكل ممالك الأرض، لتأتي من كل فج عميق.

إنها روح الأمة اليمانية التي لا تحتمل الشك، ولا تعرف غير اليقين، اليقين بربها، واليقين بمبدئها، واليقين بذاتها الحضارية الخالدة المتعالية، تلك الذات التي تعشق الحقيقة، وتبحث عنها، فإذا ما ظفرت بها جعلت منها يقيناً لا يقبل التردد، تمتحن الحقيقة أولاً بشتى الطرق الحسية والعقلية والماورائية، فإذا ما تحققت منها يقيناً، آمنت منها، واتخذت منها مشروعاً لتجديد ذاتها الحضارية، واستعادة أمجادها التاريخية.

إنه منهج اليقين الكلي المبنّى على واقعية جميع المدركات الحسية وغير الحسية، ما يتصل منها بعالم المادة وما يتصل بعالم ما وراء المادة، "لقد سمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب فأتت لتمتحنه بمسائل"، وهذا هو منهج الروح المؤمنة

للأمة اليمانية، روح لا ترفض الحقيقة، ولا تعاند الصواب، ولكنها لا تفقد ذاتها وشعورها بالتفرد والعلو على غيرها، فهي أعظم مكانة وحضارة وملكاً من غيرها، وإنما تستعين بها الأمم والرسالات والرسل لمكانتها وعظمتها، "أتت من أقاصي الأرض بموكب عظيم، لتسمع حكمة سليمان وهوذا اعظم من سليمان ههنا".

هذه هي الحقيقة التي لا لبس فيها، فالروح القومية للأمة اليمانية روح إيمانية عظيمة في التاريخ، وقد ظلت تمد الرسالات والنبوءات والأمم الأخرى بعوامل الابداع والقوة والتمكين والنصرة، قرناً بعد قرن، وأمة بعد أمة، حتى أعياها النضال الإنساني، ونفذ رصيدها الذاتي، وطاقتها المعنوية، فكان آخر انبعاث روحي لها لحظة بعثة النبي محمد(ص)، حيث ترك بني قومه في مكة أهل الشك والتردد، ويمم وجهته نحو يثرب، ليحمل الأمة اليمانية عبئ النهوض بمتطلبات الدفاع عن الرسالة الخاتمة، والاندماج فيها، فأطلقت الأمة اليمانية آخر زفراتها الروحية، وخرجت بكامل معنوياتها ووهجها القومي تسابق الريح، فتحاً للأمصار والبلدان، فكانت الأرق قلوباً، والألين أفئدة، والأكثر حكمة، والأكثر عفة عما في أيدي الناس، والأقدر على هداية الأمم، وكسب مودتهم، بخلاف غيرها من أجلاف العرب الذين خرجوا للفيد والإثراء والغنيمة، فتسببوا في كوارث تاريخية لحقت بالأمم والشعوب، فحملوها ما لا تحتمل من الأطماع السياسية والسلطوية.

- **روح وثابة مندفعة**

إن الروح القومية اليمانية روح ديناميكية حية، متفاعلة مع ما حولها من الأحداث والمتغيرات، مندفعة في التعاطي معها حد الذوبان فيها، والفناء في طبيعتها، ذلك أن شعور الأمة اليمانية بأصالتها التاريخية، وأنها أصل لحضارة الشرق العربي والافريقي، وأن جميع العرب ينتمون لهذا الأصل التاريخي نسباً ووجوداً حضارياً، جعلها تعيش حالة من الحضور الوجداني في كل حدث يمس الشعوب العربية والحضارات الشرقية، سواء في العالم القديم أو الوسيط أو الحديث والمعاصر، وحتى لو كانت الامة اليمانية تعالج عاهات تخلفها ومرضها، فإنها لا تفقد دافعيتها القومية، وشعورها الوجداني تجاه أجزاء الشخصية الحضارية لعالم الشرق كله.

إنها تشعر أنها الأصل الذي تعود إليه كل الفروع، وما دامت كذلك فإن عليها الاستجابة لكل نداءات الروح الأممية لعالم الشرق العربي بكل شعوبه وقومياته التي لا تعدو أن تكون منبثقة من القومية اليمنية الأم، كانبثاق الغصن من الشجرة الباسقة، فالعرب جميعها قديماً وحديثاً وراهناً وفيما يستقبل من الزمان، تعترف أن أصولها يمنية، وأن شعوبها هجرات يمانية موغلة في التاريخ كالفراعنة والهكسوس والبابليين والأشوريين والفينيقيين والأموريين والأحباش وغيرهم، أو متأخرة وسيطة كهجرات ما بعد الإسلام والتوسع الإسلامي، ولا تزال العرب وستظل تردد قائلة" من ليس بيمني فليس بعربي"، وهو ما يمنح الروح القومية اليمانية الشعور بالأبوية على كل شعوب المنطقة ومجتمعاتها وأفرادها.

لكن هذا الشعور الأبوي القومي للأمة اليمانية قد كلفها الكثير من العناء والتضحية في تاريخها الطويل دفاعاً عن الوجود الحضاري للشعوب المتصلة بقوميتها ووجودها، حيث يسجل التاريخ حملات سبئية منذ الألف الثالث ق.م للدفاع عن بابل وآشور ومصر وبلاد الشام من قبائل الفرس والأعاجم التي كانت تغزوها، فقد جاء في كتاب معالم تاريخ الشرق الأوسط القديم للدكتور محمد عصفور ص ١١٧ و٢٧٧، أن الأموريين القادمين من جنوب الجزيرة العربية في أواخر الألف الثالث ق.م، شكلوا الغالبية التي اجتاحت سوريا وسيطرت على مصر، وامتدت ممالكهم إلى بلاد عيلام شرقاً، والبحر المتوسط غرباً. والأموريون هم جيش الملك سبأ عبدشمس في ٢١٥٠ق.م، خرجوا للغزو دفاعاً عن مناطق بابل بعد أن تغلب عليها ملوك الأعاجم من الفرس الكوتميين، وتغلب بنو عوجان بن يافث على أنطاكيا، فجمع سبأ عبد شمس الأمة اليمانية من بني قحطان بن هود، ومضى بهم لتأديب الأعاجم، واستعادة بابل والشام، وتسميه نصوص مدينة أور السومرية بالملك " شمس ويكال" وتثبت أنه سحق الكوتميين ثعابين الجبال القارصة، أعداء الآلهة، وغزا بلادهم، وقتل ملكهم

تريقان. وذكر نشوان الحميري أن الملك عبد شمس بنى قطرة صنجة، كحصن للدفاع عن مدينة أور السومرية من الغزاة.

وليست هذه هي المرة الأولى في تاريخ الأمة اليمانية القديم التي تحتشد للنفير دفاعاً عن أجزاء شخصيتها التاريخية، فلا يكاد يذكر ملك من ملوك الحضارة اليمنية القديمة، منذ الألف الرابع ق.م، وحتى قبيل الإسلام، إلا وكان له غزوات خارجية، في أغلبها دفاعية لردع عدوان خارجي على أجزاء الأمة من الشعوب العربية المتصلة بالوجود القومي للأمة اليمانية، فضلاً عن الاندفاعات التاريخية للأمة اليمانية المنبثقة من روح رسالات سماوية، أو الهادفة عنها وإزالة المنكرات الكونية الكبرى، حيث تشهد نقوش بابل حسب ما ذكر د. طه باقر في موجز تاريخ بلاد الرافدين: أن الملك "سابئوم بن ولئيل" بسط سلطانه على سبأ وبابل بدل نمرود، وهو الملك السكسك بن وائل بن حمير، حيث يقول الهمداني في الإكليل: أما السكسك بن وائل بن حمير، فغزا النمرود بن ماش، وبلغ حنو قراقر من أرض العراق.

وقد كان غزو الامبراطورية السبأية للنمرود وخلعه عن الملوكية، بسبب ادعائه الألوهية في عهد النبي إبراهيم - عليه السلام- وتماديه في ارغام الناس على تأليهه وعبادته، وقد حكم بابل بعد نمرود سلسلة من الملوك اليمنيين منهم الملك حمورابي بن الملطاط بن حمير، بينما كان أخوه شمس عاد بن الملطاط يحكم الإمبراطورية من أرض سبأ في ١٧٩٣ق.م، وفي نفس الوقت وردعاً لمحاولات الأعاجم من الحثيين غزو بلاد الشام أقام الملك التبع شمس عاد ابنه لقمان الحكيم بن شمس عاد ملكاً على سوريا وبلاد الفينيقيين.

وإذا ما حاولنا سرد حقائق الروح المندفعة للأمة اليمانية من خلال الحديث عن الغزوات الخارجية، فإننا سنحتاج إلى مجلدات ضخمة، وجهد كبير، وقد كفانا هذا الجهد المؤرخون العرب واليمنيون أمثال ابن خلدون والكلبي وابن الأثير والطبري والمسعودي والهمداني ونشوان الحميري وكعب الأحبار وغيرهم، ولا تزال النقوش والآثار الحضارية في العراق والشام ومصر واليمن تكشف كل يوم عن اثبات جديد لتوثب الروح القومية اليمانية في عهودها التاريخية الغابرة، أما التاريخ الوسيط فلا يحتاج إلى دليل إثبات لتأكيد اندفاعة الروح القومية للأمة اليمانية، فهو مدون في حوليات المؤرخين العرب والمسلمين، باليوم والشهر والسنة، وبمجمله وتفاصيله، ويتضمن شهادات لا حصر لها في هذا الباب، فلولا اندفاعة الأمة اليمانية في نشر رسالة الإسلام، وتوسيع جغرافيته ما غادر الإسلام شعاب مكة، ولا عرف الدولة ولا الخلافة ولا الفتوحات.

لقد لعبت الأمة اليمانية دوراً مفصلياً في نشر الإسلام وبناء دولة الخلافة وتوسيع سلطانها، من خلال الفتوحات الإسلامية أيام الخلفاء الراشدين، فقادوا معركة القادسية ضد الفرس، وفتوحات مصر، واستوطنت همدان في الجيزة، وكان السمح بن مالك الخولاني أحد القادة الذين حاولوا ضم فرنسا لدولة الخلافة، وقتل في تولوز وأعقبه قائد يمني وهو عبد الرحمن الغافقي، وقتل في معركة بلاط الشهداء، وغزا حميد بن معيوف الهمداني جزيرة كريت اليونانية، واشترك اليمنيون في فتوحات النوبة، وكان الحميريون بقيادة صالح بن منصور الحميري هم من نشر الإسلام بين الأمازيغ، في منطقة الريف المغربي، وأقاموا إمارة نكور، أو إمارة بني صالح، وفي العصر الأموي، ولي ربيع بن زياد الحارثي المذحجي خراسان، وغزا يزيد بن شجرة الرهاوي المذحجي وعبد الله بن قيس التراغمي الكندي البحر وصولاً إلى افريقيا، وغزا معاوية بن خديج التُجيبي الكندي صقلية، وكان أول عربي يغزوها، وافتتح ابن خديج التُجيبي أفريقية (تونس) ثلاث مرات وافتتح النوبة. وتولى إمارة مصر وبرقة.

وبعد أن وطد القائد اليمني موسى بن نصير اللخمي الحكم في افريقيا، اتجه بتفكيره نحو الأندلس (أسبانيا حالياً) يدفعه إلى ذلك دافع ديني، وهو نشر الإسلام وتأمين حدود الدولة الإسلامية والخلافة الأموية في بلاد المغرب، وآخر قومي هو التمكين للأمة اليمانية المهاجرة من استيطان بلاد الأندلس، ومنع غارات القوط والفرنجة والروم المقيمين في أسبانيا، وبدعم من موسى بن نصير اليماني عبر طارق بن زياد اليماني مضيق المغرب الأقصى فسمي باسمه إلى يومنا هذا، ونزل عند سفح الجبل، وحقق كثيراً من الانتصارات حتى وصل إلى طليطلة، وتمكن من هزيمة القوط، وأغرق ملكهم (لذريق) في البحر، ولحق به القائد اليماني موسى بن نصير إلى طليطلة، على رأس حملة كبيرة لفتح الأندلس معاً، فتم لهم ذلك سنة ٩٣هـ، ولولا أن الوليد بن عبدالملك في دمشق أمره بالعودة إلى الشام هو وطارق بن زياد، لبلغ إيطاليا.

ولم تكن الفتوحات والغزوات تشكل الدافع الوحيد للروح القومية للأمة اليمانية، بل ثمة دوافع أخرى لاندفاعة الروح القومية للأمة منها دافع التجارة العالمية بين الشرق والغرب، فعندما توقفت الفتوحات لم تتوقف قوافل الأمة اليمنية في جوب الأرض شرقاً وغرباً، عبر قوافل التجارة التي لم تدع سلعة إلا ورحلت في بيعها أو شرائها أو استجلابها، بل إن من قوافل التجارة تلك من استوطن بلادًا قاصية بعيدة وبقي فيها حتى هذه الساعة، فمعظم الهجرات اليمنية استقرت في جنوب شرقي آسيا، وكان منها في الهند والسند والصين وأندونيسيا وتايلند وبورما وماليزيا، وما تزال حتى هذه الساعة جاليات يمنية كبيرة ذات ألقاب عربية يمنية واضحة تتخذ من تلك البلاد مستقرًا.

ولا يقتصر اندفاع الروح القومية للأمة اليمانية على المهددات الخارجية أو الواجب القومي أو الدافع الاقتصادي، بل تتجسد الدافعية أيضاً في السلوك الشعبي والجماهيري داخلياً، فالأمة اليمنية تمتلك روحاً محتشدة ومندفعة في المواقف والقضايا العامة بشكل منقطع النظير، حتى لو كانت تلك المواقف والأحداث خاطئة، ففي مراحل التخلف الحضاري تظل الروح الوجدانية للأمة في حالة تهيج واندفاع، ولكنه اندفاع لا واعي، في لحظة فراغ وكمون للروح القومية، وغياب كلي للمشروع التاريخي، وهو ما يسهل للقوى المعادية للذات اليمنية والهوية والوجود الحضاري، أن تستغل تلك الاندفاعات اللاواعية لتحقيق طموحاتها في استغلال الشعب اليمني، ومصادرة حريته وكرامته.

- **روح مستقلة**

الاستقلالية سمة من سمات الروح القومية للأمة اليمانية، فهي أمة ذات وجود حضاري مستقل عن غيرها من أمم الأرض، ذلك أنها تملك أسس المنافسة الحضارية، وتشكل أصل الوجود التاريخي للشرق العربي بأسره، ولقد مرَ على الروح القومية للأمة اليمانية آلاف السنين منذ وجودها الأول في التاريخ، ولم تتغير أو تتبدل أو تندمج بغيرها وتذوب، بل ظلت قائمة بذاتها مستقلة عن غيرها عبر الزمن.

لقد تعرضت اليمن في مراحل مختلفة من ضعفها وتراجعها القومي، لمحاولات استعمارية عدة، بأوجه شتى، عسكرية وثقافية واستيطانية، كما مرت بمحاولات طمس وضم وإلحاق وإلغاء ومصادرة، وربما استمرت هذه المحاولات لعشرات القرون، لكنها لم تستطع بكل السبل والوسائل طمس الهوية الحضارية لليمن كأمة حاضرة في قلب التاريخ، ولا إلغاء وحدة الشعور القومي من أذهان المجتمع، ولا محو ذكريات الأمجاد وبطولات الأسلاف، فلا يزال كل يمني يشعر أنه منحدر من سلالة ملوك عظماء، وأن اليمن أرض آبائه وأجداده ملوك الأرض، وأن هذه الأرض تحمل في بطنها دلائل التفوق الحضاري، والتفرد البطولي، وتنطق صحراؤها ومدنها باستحالة أن تخضع لسلطان أجنبي غاصب، مهما كانت قوته وجبروته.

إن الروح القومية للأمة اليمانية روح تعشق الاستقلالية بحق، ولو كانت على شظف العيش أو مكابدة الحياة، وتأبى الوصاية والضم والإلحاق، وتنبذ من يظهر العمالة للخارج أو الاتكال عليه، مهما كان السبب، فالأمة اليمانية تدرك من خلال تجاربها المتكررة عبر الزمن، أن الارتهان للخارج بأي شكل من الأشكال، لن يكون إلا على حساب حريتها واستقلالها، وهي تمقت أي شخص أو جماعة أو حزب أو فئة يظهر انتماءه للخارج على حساب وطنه وأمته، مهما كانت مكانته ومنزلته، ومهما كانت قوته وبطشه، فإن مصيره أن تدوسه الأمة اليمانية بأقدامها.

وإذا كانت الروح الوثابة للأمة اليمانية قد دفعت بها للغزو والفتوحات وتأسيس نظام عالمي في التاريخ القديم، والتأسيس للتجارة العالمية، فإنها في مراحل تخلفها وتراجعها قد قاومت كل أشكال الاستعمار والاحتلال والغزو، فقاومت الغزو الروماني في ٢٥ ق.م، وعاد منكسراً يجرجر أذيال الهزيمة، وقاومت الأحباش في مراحل متعددة، وقضت على أحلامهم التوسعية المدعومة من الرومان، كما قاومت الأطماع الفارسية قبيل الإسلام، وحصرت أدوارهم في مساندة الملك سيف بن ذي يزن كجند وعبيد، وحينما حاول الفرس تسلق السلطة بعد موت الملك سيف وابنه معد كرب، ثارت الأمة اليمانية مجدداً بقيادة الملك عبهلة بن غوث العنسي، فأنهت حكم أسرة باذان التي لم تتعدى بضع سنين على حين غفلة.

ورغم استغفال القرشيين الهاشميين السلاليين للأمة اليمنية في مراحل سباتها العميق، وانتشار ثقافة التمذهب، بفرض احتلال سلالي عنصري متلبس للدين ومدع للحق بالقرابة، إلا أن الأمة اليمانية قاومت بكل السبل ذلك المد السلالي المتترس بالعنصرية والعناصر الفارسية، وزوته في أماكن ضيقة، وأقامت عليها الحجر كعلة مرضية معدية يتوجب التخلص منها حال انتباهة الروح القومية.

وفي العصور الوسطى المتأخرة، قاومت الأمة اليمانية الغزو البرتغالي والفرنسي والعثماني، كما قاومت الاستعمار البريطاني والإمامة الكهنوتية، فكانت ثورتي ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م، و١٤ أكتوبر ١٩٦٣م فاتحة استقلال جديد للأمة اليمانية، تلك الأمة التي عاندت التاريخ، وكسرت كبرياء الغزاة وهي في أضعف مراحلها، وأوج تخلفها، وأوهى قوتها، لكنها إرادة الروح القومية المستقلة التي لا تقبل بغير الاستقلالية وحضور الذات الحضارية الفاعلة.

ولا تزال تجثم على صدر أمتنا العظيمة حثالة من أشرار الاحتلال السلالي العلوي، وشذاذ الآفاق الأفاكين، ممن استغفلوا الأمة اليمنية في مرضها وغفوتها، وتلبسوا ثوب الدين الكاذب، والقرابة المفتراة، وأكذوبة القداسة الاستعلائية ودعوى الحق الإلهي المكذوب، وقد حان للأمة اليمانية والروح القومية أن تقذف عنها أوساخ التاريخ، وعما قريب تتحرر الروح اليمنية من اسار العلة السلالية والاحتلال الهاشمي الفارسي، المستتر تحت أثواب المذهبية والطائفية ودين القرابة وأكذوبة الحق الإلهي، وما ذلك على عزم الأمة وإرادتها القومية بمستحيل.

م٢: الخرافة القرشية والأكذوبة الهاشمية

لعب الصراع السياسي بين أحلاف مكة دوراً محورياً في صياغة الأحداث المتتالية في التاريخ الوسيط والإسلامي على وجه التحديد، فتاريخ مكة السياسي المستقل عن اليمن يبدأ من قصي جد عبد المطلب، فقد كان لبني الحارث بن عمر الخزاعي اليمني السيادة على القبائل المفككة في مكة قبل قصي، فتزوج منه قصي، وليس له من الأبناء، فلما توفي آلت السيادة إلى قصي زوج ابنته، فسطا عليها وانتزعها من خزاعة مستعيناً بقضاعة.

من هاهنا تبدأ النزعة القرشية وفصولها التراجيدية، حيث تشكلت لدى قصي رؤية سياسية سلطوية توارثها أبناؤه من بعده، ويذهب الدكتور خليل عبدالكريم في كتابه (قريش من القبيلة إلى الدولة) إلى القول بأن قصي بن كلاب هو واضع البذرة الأولى للدولة القرشية، من خلال عقد الإيلافات مع القبائل العربية، التي حولت قريش من قبيلة مستكينة ضعيفة تسكن الشعاب، إلى قبيلة حاكمة تمسك بزمام السلطة والثروة في مكة، أما صاحب كتاب الحزب الهاشمي فيذهب إلى القول: بأن هاشم ومن بعده ابنه عبدالمطلب كانا يطمحان في وحدة سياسية بين عرب الجزيرة تكون نواتها ومركزها مكة.

ويبدأ التكوين السياسي لحزبي قريش المتعارضين مع اسناد قصي الأمر من بعده إلى أبنه عبد الدار، وجعل عبد مناف مساعداً له، فلما فنوا تشاجر أبناؤهم في ذلك، فقال بنو عبد مناف: إنما خصص عبد الدار ليلحقه بإخوته، ونحن نستحق ما كان آباؤنا يستحقونه، وقال بنو عبد الدار هذا أمر جعله لنا قصي فنحن أحق به، واختلفوا اختلافاً كبيراً، وانقسمت بطون قريش إلى فرقتين، فرقة بايعت بني عبد الدار وحالفتهم، ونحروا جزوراً، ووضعوا أيديهم في الدم لتأكيد تعاقدهم، فسموا بحلف لعقة الدم، وفرقة أخرى بايعت بني عبد مناف وحالفوهم، وأتوا بقدر مملوء طيب فوضعوا أيديهم فيه وتعاقدوا، وسموا بحلف المطيبين.

وفي خضم هذا الصراع تقاسم بنو عبد مناف وبنو عبد الدار أعمال السيادة الرفادة والسقاية، فصار هاشم سيداً لقريش، وبقيت السقاية والرفادة من نصيب بني عبد الدار، حتى نهض أمية بن عبد شمس ينافس عمه هاشم ويطلب الشرف، فنفي إلى الشام ليظل بها عشر سنوات كما أورد ذلك الطبري في التاريخ الأكبر، وكانت تلك السنوات العشر في المنفى تأسيساً لعلاقة بني أمية بالشام، ومع الأيام انحاز بنو أمية لحلف قريش ضد بني هاشم، فصارت قريش تشكل أغلبية على بني هاشم، رغم بقاء عبد المطلب سيداً على قريش.

وهكذا بدأت ملامح الحزبين الأقلية الهاشمية الحاكمة، والأكثرية القرشية المعارضة، ومع شعور الأقلية اتجه عبد المطلب للبحث عن الكرامات والتعلق بالبيت الحرام، فجاءت قصص حفر ماء زمزم، وقصص نذر عبد المطلب ذبح ولده عبد الله والد النبي(ص)، واستبداله بذبح مائة ناقة، وغيرها من القصص التي رويت من قبيل تعظيم عبد المطلب وإثبات كراماته أمام منافسيه الأقوياء.

ومن خلال تتبع أخبار ذلك الصراع السياسي نجد أن بني هاشم ضعفت سيطرتهم وسلطانهم السياسي على مكة منذ عهد عبد المطلب، حيث نرى منافرة حرب بن أمية لعمه عبد المطلب، واستعانته ببني عبد الدار وعبد شمس، واضطرارهم لإيجاد شراكة تقاسمية للشرف واللواء، وصيغة للحكم المشترك فيما سمي بدار الندوة، مع بقاء رمزية بسيطة لعبد المطلب، لكن هذه الرمزية ما لبثت أن سقطت في عهد ابنه أبي طالب، حيث يظهر ضعفه من خلال عدم قدرته على حماية ابن أخيه محمد(ص) ودعوته، ودخول بني هاشم كلها في حصار الشعب لثلاث سنوات، ما يعني سلب السيادة بشكل نهائي من عبد المطلب ونقلها إلى حلف قريش بقيادة أبي جهل بن هشام بن عبد شمس، وهو ما انعكس على دعوة الرسول محمد(ص)، حيث اضطر للهجرة إلى اليمنيين في يثرب ليجد لديهم الحماية من بطش قريش، وتبعه في تلك الهجرة أغلب بني هاشم.

وإذاً فإن محمداً (ص) قد استطاع اقناع اليمنيين في القبول به حكماً سياسياً عليهم، فضلاً عن سلطته الروحية والدينية باعتباره نبياً ورسولاً، من خلال صحيفة المدينة والاستفتاء على الحاكم، فإن الصراع السياسي بين حزبي قريش في مكة الأقلية الهاشمية والأغلبية القرشية، قد أسس بعد موت النبي(ص) لمفهوم متضارب بين الأحقية القرشية بالغلبة، والأحقية الهاشمية بالقرابة، فقد اعتقدت قريش أن من حقها وراثة النبي (ص) في الدين والسياسة والسلطة، وأن انتصار النبي(ص) وبناء سلطته في يثرب ليس سوى توسيع لنفوذ قريش السياسي، وكان هذا الفكر السياسي بداية الانحراف الحقيقي في التاريخ الإسلامي، وبداية الصناعة الأيديولوجية للإسلام في صورة مشروع سياسي لخدمة أقطاب قريش المتنافسة على السلطة منذ زمن.

لم يكن الإسلام في حقيقته يفرض على العرب الانقياد لقريش وسلطانها السياسي بعد محمد(ص)، وإنما دعا العرب للإيمان بمحمد ورسالته، وترك لهم اختيار الطريقة في إدارة شؤونهم، سواء ظلوا شعوباً تحتفظ بسلطاتها المستقلة في إطار سلطة الدولة الاتحادية، أو قرروا الاندماج في كيان سياسي واحد، غير أن اختلاط مفهوم الإسلام بمفهوم السياسة والسلطة في وعي قريش بسبب تاريخ المنافسة بين أحزابها، وطبيعة النبي(ص) التي جمعت بين النبوة بالوحي، والحكم بالدستور والقانون المدني، جعلها تنظر للسلطة السياسية كظل للعقيدة، ولأنها رأت

في نفسها وارثة للدين بعد موت النبي(ص) فقد رأت -أيضاً- أن السلطة السياسية منحصرة فيها، فظهرت في السقيفة دعوى: (العرب لا تدين إلا لقريش)، ومع الأيام تطورت الدعوى عقيدة سياسية، فظهرت روايات (الأئمة من قريش ما بقي منهم اثنان)، ورواية (من كنت مولاه فعلي مولاه) وغيرها من الروايات السياسية التي هدفت لاحتكار السلطة، ومصادر حق الشعوب العربية في الاستقلال واختيار حكامها.

هكذا كان لغياب الآليات المنهجية في اختيار الحاكم بعد النبي محمد دور كبير في مصادرة استقلال الشعوب العربية، ومعاودة ظهور المنافسة القبلية بين أقطاب قريش (بني أمية وبني هاشم) على السلطة، حيث كشفت الأحداث المتلاحقة بعد موت النبي(ص) أن قريشاً استأثرت بالسلطة دون العرب، ما أدى إلى ظهور حالة من السخط العام فيما عرف بحروب الردة، إذ لم تكن العرب لترتد عن الإسلام، وإنما ارتدت عن متابعة قريش في السيادة والسلطة، فكان دافع المنافسة لقريش يقف وراء أحداث الردة، بخلاف ثورة الملك عبهلة بن غوث العنسي التحررية ضد الاحتلال الفارسي في صنعاء، فإنها ثورة قومية تحررية لا صلة لها بدين ولا بعقيدة، وإنما استخدم الفرس الإسلام كلافتة لحشد موقف العرب من قريش ضد ثورة اليمن التحررية، فالملك عبهلة بن غوث العنسي لم يكن قد دخل الإسلام حتى يرتد، وإنما قاد ثورة لتحرير صنعاء من احتلال الفرس، وتم له ذلك، وما رواية ردته إلا أحد أكاذيب الفرس المحتلين، حيث أن راوي الأكذوبة هو فيروز الديلمي الذي تآمر على قتله، لتؤول إلى صنعاء في عهد الخليفة أبي بكر ، فقد بالغت عناصر الفرس في صنعاء في إظهار طاعتهم للخلفاء من قريش ليدعموا بقاءهم حكاماً محتلين لصنعاء، وهو ما حدث في عهد أبي بكر، وفطن له عمر بن الخطاب، فقام بعزل ولاة الفرس، وتولية يعلى بن أمية على صنعاء.

وهكذا أسست المنافسة القرشية على السلطة لإلغاء اليمنيين والعرب منذ اللحظة الأولى لتأسيس الدولة المركزية، مستغلة غياب الوعي بحقيقة الإسلام ورؤيته للسياسة والسلطة واستقلال الشعوب وهوياتها، حيث عمدت قريش لتعزيز مفهوم الدولة الاندماجية، وجعلها جزءاً من العقيدة الدينية، فصار على المسلمين متابعة الدولة المركزية الواحدة، واعتبار الخروج عنها خروجاً عن الإسلام والعقيدة، ولأن الدولة المركزية الإسلامية صارت تتحكم بها حصرياً أحزاب قريش السياسية المنقسمة بين القبيلة السياسية والأسرة السياسية، تحت دعوى القرابة بالقبيلة، والقرابة بالأسرة، أو القرشية والهاشمية، فقد انقسم المسلمون تبعاً لذلك بعد خلافات علي ومعاوية إلى أنصار لبني أمية، وأنصار لبني هاشم، واستغلالاً لذلك الانقسام ذهب أحزاب قريش للتأسيس لعقائدها السياسية الاستعلائية تحت دعوى

القرشية والقرابة، فلما انهزمت بنو أمية وغلب العباسيون، تنافس العباسيون والعلويون على القرابة، فظهرت دعوى الولاية والبطنين والحق الإلهي والقداسة الهاشمية، وصارت فكرة الإمامة السرية ظهيراً علوياً للخلافة العباسية، وكان أول من أسس لها محمد الباقر بن علي بن الحسين، كأطر فكرية لأيديولوجيا استغلالية توظف الإسلام لخدمة السلالة العلوية بطريقة استعلائية، ومن ورائها نشأ التشيع، وبدافع الأطماع السلطوية ذاتها تفرق العلويون إلى فرق وجماعات متعددة، وصار كل فريق منهم يدعي الأحقية بالسلطة من غيره، فظهرت الزيدية والبترية والجارودية والإثناعشرية والاسماعيلية الباطنية وغيرها من الفرق التي تعددت بتعدد الطامعين في السلطة، المدعين لخرافة التوريث بالقرابة.

وقد ظلت الخرافة القرشية والأكذوبة الهاشمية تعصف باستقرار الشعوب والمجتمعات العربية وتصادر استقلالها الوطني طيلة العصور الوسطى، حيث جعل الفقهاء سنة وشيعة القرشية أو الهاشمية شرطاً من شروط الحكم والإمامة والسلطة، فصار محرم على المرء أن يحكم وطنه، وأن يحقق لوطنه الاستقلال السياسي، بل يتوجب عليه أن يبحث عن عناصر قرشية أو هاشمية يوليها السلطة، وقد توزعت العناصر القرشية والهاشمية على البلاد الإسلامية فيما يشبه الاحتلال السياسي، وغدت هي الحاكم الفعلي للشعوب والمجتمعات، والمتحكم بأمنها واستقرارها، وهو ما صادر حرية الشعوب واستقلالها، وجعلها تغط في تخلف رهيب تبعاً لعقلية قريش المنحبسة في حدود الأسرة والقبيلة.

وإذا كانت بعض الشعوب والمجتمعات العربية قد اكتفت بانتقال عواصم الخلافة والحكم إليها، فإن الأمة اليمانية قد خدعت بقريش مرتين، مرة في السقيفة حين تنازلت عن حقها في اختيار الخليفة بعد النبي(ص) كونها الأمة التي احتضنت الرسالة والرسول (ص) وقامت بأعبائها، وأعباء من هاجروا معها، والمرة الثانية حينما خرجت تفتح الأمصار وتنشر الإسلام، فاتسع بذلك سلطان قريش السياسي، فعادت أجزاء من قريش لاحتلال اليمن تحت دعوى وأكذوبة الولاية والإمامة والبطنين والحق الإلهي، مستغلة نفور اليمنيين للفتوحات أفواجاً، وبقاء الضعفاء من الناس وعوامهم في اليمن.

لقد كان طموح العلويين في السلطة ظاهراً في كل تحركاتهم منذ وقت مبكر، غير أنهم لما فشلوا في الثورة على العباسيين مراراً، قرروا ا الانتقال إلى التنظيم السري، فابتكروا عقائد التشيع، وشكلوا ميليشيا مسلحة داخل الدولة، وأخذوا يفتشون في أقاصي الدولة المركزية عن مناطق نائية يبسطون عليها نفوذهم، فوجدوا في الفرس ومناطق الفرس حلفاء لهم، وحاضنة لدعوتهم وأفكارهم، ولما كانت اليمن تشكل بلداً قصياً عن عاصمة العباسيين، فقد وجد العلويون في ذلك فرصة لتحقيق

مطامعهم السلطوية، فغزت ميليشياتهم اليمن في عهد المأمون في ١٩٨هـ بقيادة المجرم إبراهيم الجزار ب ٦٠٠٠ ألف مقاتل من العلويين والطبريين والفرس، فعاثوا في الأرض الفساد، فأخربوا السدود، وهدموا مدينة صعدة، وأفنوها من سكانها، حتى اجتمع عليهم اليمنيون في صنعاء فأخرجوهم منها.

غير أن العلويين اعادوا المحاولة بعد قرن من الزمن مستغلين ضعف اليمن، وخروج اليمنيين للفتوحات، فتقدم المجرم يحيى الرسي في ٢٨٤هـ بجيش من الطبريين للسيطرة على صعدة، وقام بخديعة القبائل والتفرد بها قبيلة قبيلة، طالباً البيعة لنفسه، مدعياً أنه من أهل البيت، ثم قاد سلسلة من الحروب ضد القبائل المناهضة له، مستخدماً أسلوب الإرهاب من قطع الرؤوس وتعليق القتلى منكسة رؤوسهم على الأشجار، وهدم المنازل، واحراق المزارع، ونهب الأموال وغيرها.

كما ذهب لتأسيس أكذوبة الهادوية والتشيع العلوي تحت مسمى الزيدية، مدعياً قداسة الهاشمية، واشتراك علي وأولاده وزوجته مع النبي (ص) في الدعوة والرسالة والوحي، فهم مطهرون، وهم ورثة الدين بعد النبي هم وأولادهم ونسلهم – حد زعمه- ولا يؤخذ الدين إلا منهم، وهم قرناء القرآن، فلا يفهم القرآن إلا بهم، بل هم حجة على القرآن وليس العكس، وهم بموجب ذلك متفاوتون مع الناس من حيث الوضع البشري، فهم أبناء نبي مقدسون، وغيرهم أبناء الناس، وبموجب أكذوبة القداسة والنطفة الطاهرة التي افتراها المجرم المحتل يحيى الرسي وعناصر الضلال العلوية الهاشمية، حاول هذا المجرم الخبيث أن يخدع بها اليمنيين في لحظة جهل وتفكك، فأقام دعوى الولاية والبطنين، وتعني السلطة الممنوحة للعلويين الهاشميين الغزاة من الله، فهم حكام اختارهم الله – بزعمهم – ليكونوا حكاماً على اليمن واليمنيين إلى قيام الساعة، وليس لليمنيين الحق في حكم بلادهم، ولا الاستقلال عن العناصر الهاشمية المحتلة الغازية، وإنما يتوجب عليهم الخضوع والتسليم، وتقديس الغزاة الهاشميين، وطاعتهم، ومنحهم الخمس من أموالهم، والقيام على خدمتهم ليحظوا بلقب العبودية، تحت مسمى شيعة آل البيت وأنصارهم.

وإمعاناً في الكذب والتدليس ومغالطة اليمنيين في لحظة جهل وتخلف، ادعى المجرم المحتل أن النبوة بعد محمد(ص) انتقلت إلى علي وسلالته، وإنما اختلف مسماها فقط، فبدلاً عن النبوة أبدلهم الله مصطلح الإمامة، والإمام يوحى إليه كالنبي، وكلامه شرع ووحي، وهذا الادعاء الكاذب يقيم السلالة الكهنوتية النجسة المحتلة مقام الأنبياء، فيجعلها سلسلة أنبياء معصومين، وهو نوع من الدجل والشعوذة والكذب والاستغلال البشع للدين، طمعاً في اخضاع اليمنيين لسلطان المحتل السلالي الغاصب.

فلما احتج اليمنيون على هذا التدليس والكذب والافتراء، وضاقوا ذرعاً بالاحتلال السلالي البغيض، ثاروا بوجه هذا الوجود السلالي، فعمد الهاشميون السلاليون إلى استقدام المذهبية، على أيدي عناصر من الهاشمية تدعي التسنن والمخالفة، أمثال أحمد بن عيسى المهاجر، والأهدل والزيلعي، حيث قدم هؤلاء الغزاة إلى اليمن بعد مقدم يحيى الرسي بحوالي عشرين عاماً، وذهبوا للتأسيس للمذهبية تحت مسمى التصوف والشافعية، فانقسمت اليمن مذهبياً بين سنة علوية وشيعة علوية، وزيدية شيعية تحتل شمال اليمن بالقوة العسكرية والتحالف مع الفرس، وصوفية شافعية تخضع اليمنيين لمحبة آل البيت والتسليم لهم، وتقيم الأضرحة للعلويين مقام الآثار الحضارية الخالدة للسبئيين والحميريين والتبابعة، فحدث بذلك الاستلاب الحضاري، ودخلت الأمة اليمانية في مراحل تخلف، وعصور انحطاط يلفها الظلام، وتعتصرها حروب الاحتلال السلالي الهاشمي، وتجييش القبائل اليمنيين بدافع الفيد والمغنم ضد بعضها، لصالح تدعيم سلطة الإماميين المحتلين، تحت دعوى الإمامة الهاشمية والبطنين والحق الإلهي.

وعلى مدى ١٢٠٠ عام غابت الذات الحضارية، وانطمست الذاكرة الوطنية، وتخلفت الأمة اليمانية بفعل الاحتلال السلالي البغيض عن ركب الحضارة البشرية، فلم تعرف اليمن معنى الدولة الوطنية، ولا معنى الاستقرار والسيادة، ولا معنى المواطنة المتساوية، وخسرت إمكاناتها البشرية والمادية والحضارية، فلا يكاد يمرُ جيل حتى يفتعل الاحتلال الهاشمي الفارسي حروباً شتى، تحت دعوى استعادة الإمامة، يكون ضحيتها عشرات بل مئات الآلاف من اليمنيين، فضلاً عن الخراب والدمار الذي تحدثه في الأملاك والمؤسسات العامة والخاصة، والتشوهات النفسية والاجتماعية التي تتركها الحروب السلالية في الأجيال جيلاً بعد جيل، حتى غدا الإنسان اليمني مستلب الذات والشعور والانتماء، يفر من وطنه وأمته إلى المهجر للبحث عن وطن آمن يستقر فيه.

إن أكذوبة الهاشمية والولاية والحق الإلهي والبطنين وقرناء القرآن وحقوق القرابة ومحبة آل البيت وكرامات الأولياء والقباب، والتصوف والتشيع وغيرها من الخرافات، ليست سوى الأدوات الفكرية والثقافية للاحتلال الهاشمي الفارسي الذي استعصى عليه احتلال اليمن بالقوة العسكرية، فلجأ إلى تعليب الإسلام في صورة معلبات سلالية جاهزة لتدمير العقل والثقافة الوطنية والحضارية، وتحويل اليمنيين من الاعتزاز بذاتهم الحضارية المستقلة، إلى التبعية الطوعية لعناصر السلالة الكهنوتية المحتلة، تحت أكذوبة التدين والإسلام القرشي الهاشمي، وهي أسوأ نسخة من نسخ الإسلام قدمت لليمنيين، لخداعهم والنيل من سلطانهم الوطني

وحضارتهم القومية، ولسوف تتحرر اليمن من هذه السلالة الغازية وخزعبلاتها عما قريب، وما ذلك على عزمنا القومي ببعيد إن شاء الله.

م٣ القومية والتراث

إذا كانت بطولات الأمة وأمجادها وتجارها في ما مضى تسمى تاريخاً، وتشكل الهوية والذات الحضارية للأمة، فإن ما حوته هذه التجارب التاريخية من معارف وخبرات وأفكار وثقافات وعقائد وأديان مدونة أو ممأثرة بالعادات والتقاليد المتوارثة في كل نواحي الحياة تسمى تراثاً، فالتراث هو ما ينقل إلى الأجيال المتلاحقة عن الأجيال السالفة من معارف وأفكار وقيم وعقائد وتقاليد وعادات وعلوم وآداب وفنون ونحوها، أو هو ما خلفه الأجداد لكي يكون عبرةً من الماضي ونهجاً يستقي منه الأبناء الخبرات ليَعبُروا بها من الحاضر إلى المستقبل. والتراث في الحضارة بمثابة الجذور في الشجرة، فكلما غاصت وتفرعت الجذور كانت الشجرة أقوى وأثبت وأقدر على مواجهة تقلبات الزمان، وفي معجم المعاني هو الأثر الذي خلَّفته الحضارات أو تركته الأجيال السابقة وله قيمته الوطنية أو العالمية.

وينقسم تراث الأمم من زاوية الفاعلية الحضارية إلى أصيل ومكتسب، فالأصيل هو ذلك الذي ينتمي إلى البيئة الحضارية والوجود الحضاري والذات المستقلة للأمة، ويكتنز معارفها وخبراتها وتاريخها وثقافتها وابداعها الحضاري عبر الزمن، وأما المكتسب فهو ما تكتسبه الأمة أو تستفيده من غيرها من الأمم والحضارات، بفعل حركة الزمن وتداخل الثقافات أو ما يسمى بالتلاقح الحضاري والثقافي، أو ما يتسرب إلى الأمة في مراحل ضعفها وتخلفها من أفكار وثقافات ونظريات ومذاهب وافدة من خارج بيئتها الثقافية.

ويعتبر التراث الحضاري والثقافي للأمة لسان سلطانها ودليل حضورها المادي واللامادي في قلب التاريخ البشري، ويمر بمراحل قوة ومراحل ضعف بحسب صعود الأمة أو تخلفها، ففي مراحل الشهود الحضاري والحضور التاريخي يكتنز التراث روح الأمة وعقلها المعرفي المتوهج، وفي مراحل تخلفها يستبطن عللها وأدواءها، فيكون خليطاً من الخرافة و الأفكار الاستلابية الوافدة التي تزدحم على الأمة في مراحل تخلفها وانهيارها، تبعاً لأطماع الأمم الصاعدة، والحضارات الناهضة، حيث تحاول الدول الصاعدة السيطرة على تراث الدول المنهارة، وتعمل الأمم المسيطرة على نشر أيديولوجياتها وأذواقها في هيئة موجهات ثقافية تساعد على تنويم الأمم المنهارة والمتخلفة، كيلا تزاحمها على النهوض والنفوذ.

ومن هنا تنتشر في مراحل الانحطاط ظاهرة الخرافة، وتتزاحم الأيديولوجيات والمذهبيات وأفكار الطوائف التي توجه نشاط وعي المجتمع نحو الخنوع والاستكانة

والتنويم المغناطيسي، ونشاط المجتمع نحو التفتت والانقسام والوصاية والتبعية، وصراعات الأصنام والأشباح.

وليس كل التراث المكتسب ينظر إليه من زاوية السوء والتوجس، ولكن الاكتساب المعرفي في مراحل قوة الأمة ونهضتها، غير التبعية الفكرية في مراحل التخلف والانحطاط، فالاكتساب المعرفي الواعي يزيد من معارف الأمة ويمدها بتجارب الأمم الأخرى فتضيف لذاتها قوة تمكنها من تحقيق النهوض والعود الحضاري، بينما النقل الثقافي بالتقليد والتبعية في لحظة الانحطاط والتراجع، يحيل الأمة إلى مقبرة للأفكار القاتلة والمميتة، فتضيف لتخلفها الثقافي أثقالاً من نفايات الأمم تضاعف من سباتها، أو تصرفها عن منهجية العود الحضاري المنبعث من الذات الأصيلة، ومن هذا القبيل ذاته أوتيت الأمة اليمانية، فحينما قررت التخلص من إرث الإمامة وتراث التخلف والظلام والعبودية في ثورة ٢٦ من سبتمبر المجيد ١٩٦٢م، واندفع الأبطال والعظماء يفدون الوطن بأرواحهم ويزيحون عن أمتهم ركام العصور لترى النور، وتتجدد بذاتها الحضارية الخالدة، قفزت النخب السياسية لاستيراد الأفكار والأيديولوجيات والثقافات من خارج البيئة اليمنية، ومن خارج مشكلات الذات اليمانية والمجتمع اليمني، فحلت تلك الأفكار والأيديولوجيات محل مشروع الهوية والانتماء وبعث الذات الحضارية للأمة، وانحرف المشروع التاريخي من ثورة بعث حضاري شامل يعيد للأمة أمجادها وحضورها بين الأمم، إلى حدث سياسي منتقص يكتفي بقلب النظام السياسي، وينقل الأمة من عبودية الإمامة والاحتلال السلالي الكهنوت، إلى تبعية أيديولوجية خارجية منبتة عن البيئة اليمنية والروح القومية للأمة، فتحولت اليمن إلى مسرح للصراعات الأيديولوجية والسياسية الاغترابية، استهلكت من أمتنا عمر جيلين كاملين، وفتحت الباب للتدخلات الخارجية التي قضت على حلم الاستقلال الوطني، واعادت انتاج الإمامة والكهنوت السلالي كإيديولوجيا خادمة للتدخلات الشرطية القاتلة للأمة، تبعاً لرغبات المصالح الخارجية.

ولم تكن هذه الاغترابية البئيسة في الحقيقة إلا نتاجاً للوعي الزائف الذي تظاهرت به نخب سياسية طامحة في لحظة فراغ ثقافي أصيل، دفعها للتعويض عن فراغها باستيراد الأفكار والثقافات والأيديولوجيات من خارج البيئة اليمنية، دون أن تقيم لها غربالاً علمياً يخلصها من علائقها الثقافية المنقولة عن بيئتها الأصلية التي نشأت فيها، ويعيد بناءها وتبئيتها تبعاً للشروط النفسية والذاتية للأمة اليمانية.

إن الفكرة الأصيلة المنبثقة عن روح الأمة وحضارتها عبر الزمن، مهما اعترتها من حمولات ثقافية في مراحل التخلف، تظل أصيلة مشعة لها قداسة خاصة لأنها حقيقة منفصلة عن التاريخ، كالذهب الخالص الذي يشوبه غبار الزمن، لكنه لا يؤثر

في جوهره، ولا يحتاج لأكثر من إزاحة الأتربة ليعود بريقه، لكن الأفكار غير الأصيلة كتلك التي تشوب ثقافة المجتمع في مراحل التخلف، سواء كانت خرافة نابعة من تخلف العقل المعرفي، أو مستجلبة بفعل الوافد الثقافي المهيمن، أو تعرض الأمة للغزو السياسي والثقافي، تشكل في عقل المجتمع الغائب، مقبرة من اللاوعي، تستجلب إليها كل مداخيل الخرافة والتقليد، فترى الأجيال في مجتمعات التخلف مولعة بتقليد الوافد، وتبعية المنتج له، متقبلة لكل خرافة لأنها فاقدة لروحها الوطنية المستقلة، ولا تملك غربالاً ثقافياً من ذاتها الحضارية، تعرض عليه الأفكار والأيديولوجيات والعقائد الوافدة.

إن الروح القومية للأمة اليمانية تستند في جوهرها الأساس على تراث الأمة الحضاري الأصيل، ذلك التراث الذي شكل الوجه الثقافي لحضارات اليمن المتلاحقة منذ دولة قحطان الأولى في الألف الخامس ق.م، مروراً بدولة سبأ ثم امبراطورية التبابعة، وعصر الدويلات، وحتى انهيار دولة التبابعة الحميريين المتأخرة بمقتل الملك سيف بن ذي يزن قبل الإسلام، وسيطرة الفرس الأبناء على صنعاء بقيادة المحتل الغاصب باذان الفارسي ومن لحق به، فكل ما يتصل بالحضور التاريخي المشرق للأمة اليمنية، من معارف وعلوم وحكم وفلسفات ولغة ونقوش وآداب وعقائد وقيم وأفكار وعادات وتقاليد وفنون وزخارف وصناعات ونظم وسياسات وأذواق ...إلخ، يعد جوهراً أساسياً لتراث الأمة وروحها الإبداعية وتراثها الأصيل الذي يتوجب تقديسه، والحفاظ عليه ونقله إلى الأجيال المتلاحقة.

وبإزاء هذا التراث الحضاري الأصيل للأمة اليمانية يقف التراث الديني الإسلامي كتراث تشترك فيه الأمة اليمانية مع غيرها من الشعوب المسلمة، وهو من حيث كونه ديناً سماوياً تراث إضافي لروح الأمة اليمانية، لكنه من حيث كونه تراثاً ثقافياً وافداً عبر الرؤى الأيديولوجية قد شكل في أوجه كثيرة منه استلاباً حقيقياً لروح الأمة وحضارتها واستقلالها، وغدا أداة من أدوات الاحتلال والتبعية والاستغلال والوصاية، وهو ما يستدعي تحريراً علمياً وغربلة ثقافية، لإزاحة كل ما علق به من مشاريع أيديولوجية، وأطماع سياسية، وأساليب احتكارية، ليصبح الإسلام ديناً قادراً على دعم وتعزيز الروح القومية للأمة اليمانية، كما كان داعماً ومعززاً للروح القرشية، لأن الدين ليس حكراً لقبيلة ولا شعب ولا أمة، بل هو مادة روحية يمكن لكل أمة الاستفادة منها في إطار مشروعها الوطني المستقل، بعيداً عن التبعية والارتهان والوصاية والاحتكار.

لقد رجحت أوروبا في عصر النهضة تراث الأصالة بالنقل عن الفكرة الحضارية اليونانية، على قيم الفعالية بالاحتكاك الحضاري مع عالم الشرق، فلما اكتسبت فاعليتها الحضارية الذاتية في عصر الأنوار، سارعت إلى قيم الفعالية باستعمار العالم

لأخذ المواد الخام، وفتح العالم أمام منتجاتها وصناعاتها الجديدة، وحينما ذهبت للاستعمار حملت معها الروح المسيحية كأداة من أدوات المنافسة الثقافية للأمم الأخرى، فصار لها وجهان، وجه يلتفت لذاتها بأخلاقياتها الخاصة، ووجه يلتفت للعالم وهمه الوحيد خلق الفعالية للحضارة الجديدة.

إن الروح القومية للأمة اليمانية تتجانس كلياً وتنسجم مع روح الإسلام كدين سماوي خالص، ذلك أن روح الأمة اليمانية روح كونية مؤمنة سامقة، على اتصال وثيق بالسماء وكل ما جاء عنها عبر الزمن، لكنها تتنافر كلياً مع الدين المعلب بمقياس قريش وثقافتها، أو بمقياس الهاشمية وسلاليتها، أو بمقياس العثمانية وطموحاتها، أو بمقياس فارس وقوميتها، فالروح القومية لأمتنا روح مستقلة متعالية، لا تحتاج إلى وساطة أمة أخرى أو قبيلة أو سلالة تقف بينها وبين جوهر الدين الخالص، فهي من علَّم البشرية أسس التوحيد وفلسفة الوجود، فكيف يمكن أن تقبل وساطة غيرها فيما تفردت به عبر التاريخ؟

إن كل ما وصلنا من تراث ديني ما دون النص القرآني لا يكاد يخلو من موجهات أيديولوجية لنزعة سياسية معارضة لروح الأمة اليمانية، أو على الأقل لا يتجانس مع البيئة الحضارية الخاصة بأمتنا، ذلك أن النزعة القرشية أو الهاشمية أو الفارسية أو العثمانية أو غيرها قد عمدت لتأليف مصوغاتها الأيديولوجية ومضامينها الثقافية ضمن الكم الهائل من التراث الإسلامي، سواء كان ذلك بفعل سياسي مقصود، كأحاديث القرشية والهاشمية، وخرافات البطنين والعترة والولاية والإمامة والتشيع والتسنن، أو بدون قصد كتحيز المؤلفين والمفسرين والشارحين والفقهاء للدول والحكومات والجماعات والمناطق وغيرها، فضلاً عن تأثر الباحث أو الفقيه أو المفسر أو المحدث أو المفتي ببيئته الثقافية التي نشأ فيها، وكيف ينعكس ذلك التأثير البيئي في رؤيته وأفكاره، وهذا ما جعل من التراث الإسلامي وعاءً للتعدد المذهبي والطائفي والبيئي والثقافي، وهو ما يؤثر سلباً في البيئة المتلقية، خاصة تلك البيئة التي لا تملك غربالاً من ثقافتها الحضارية، وفهمها الخاص للدين، تغربل فيه الأفكار والثقافات الوافدة، وتقيسها بمقياس الذات الواعية، والخصوصية الثقافية، فمثل هذه المجتمعات تصبح ميداناً للتناقضات والفوضى تبعاً لتناقضات التراث الوافد.

إن هذه الحقيقة هي التي نراها ماثلة ومتجسدة في مجتمعنا اليمني طيلة ١٢٠٠عام، فلقد شكلت وفادة المذاهب والجماعات والأفكار الدينية المعلبة، أيديولوجيات استلاب حضاري لأمتنا اليمانية طيلة القرون الوسطى والحديثة والمعاصرة، تسببت في طمس الهوية الوطنية فأبدلتها بالهوية القرشية والهاشمية، وتذويب الذات الحضارية للأمة اليمانية فأبدلتها بالتبعية للسلالية القرشية العلوية، أو التبعية للأموية أو العباسية أو العثمانية أو الفارسية، وأبدلت الأمة اليمانية

بالحضارة كهانة واستعلاءً سلالياً، وبالتراث الحضاري العظيم كهانة ودروشة، وبالوحدة الوطنية تفككاً وانقساماً طائفياً ومذهبياً، وبالروح القومية روحاً مذهبية تنتهج التكفير والتفسيق والتطرف، وبالدولة الحضارية المستقلة وصايةً خارجيةً واحتلالاً كهنوتياً، وبالسلام الوطني والرخاء القومي حروباً سلالية سرمدية، وعنفاً طائفياً متصلاً عبر الأجيال.

هذه هي ثمار التراث المذهبي والطائفي والجماعاتي الوافد إلى بيئتنا اليمنية في التاريخ الإسلامي، وهذه هي نتائج الاستيراد والتلقيط الثقافي غير الواعي، احالت اليمن العظيم والأمة السامقة إلى مسرح للكهنة والسلاليين واللقطاء الوافدين، واليمنيين إلى أدوات للحرب والقتل والدماء بيد هؤلاء الغزاة السلاليين المحتلين لليمن خلسة تحت عباءة التراث الديني المجسد في أصنام بني هاشم وقريش وفارس، ولسوف تظل أمتنا المقهورة ميداناً للسلاليين والغزاة، لممارسة هوياتهم المفضلة في الصراعات والحروب والتعطش للدم، ما لم يتحرر الشعب اليمني والأمة اليمانية من أغلال التراث الديني القرشي والهاشمي الذي غزا بيئتنا اليمنية في حين غفلة، متلبساً الدين بثياب القرشية والهاشمية، وأيديولوجيا الخلافة والإمامة والتشيع والتسنن، والتمذهب والطائفية.

ولربما يقول قائل: إن مهمتكم كمستنيرين أن تعيدوا تنقيح التراث الإسلامي وتجليته مما علق به من شوائب عصور التخلف والانحطاط، أو ما لحق به من غواش كلامية ومضامين أيديولوجية استغلالية، وهذا أمر جيد، لكن التراث الإسلامي لا يعنينا كأمة يمنية بمعزل عن باقي الأمم والشعوب المسلمة، بل هو تراث عالمي مشترك بين ربع سكان الكوكب، وليس من المفيد ولا من المقبول أن يشتغل على هذه المهمة قطر أو شعب بمفرده، بل يتوجب أن تنشأ لهذه المهمة جهود عالمية مشتركة بين كل علماء وفلاسفة العالم الإسلامي، وقبل هذا وذاك يجب الاعتراف بأن لكل أمة ولكل شعب سواء كان مسلماً أو غيره، شخصيته التاريخية المستقلة التي دفعت به في التاريخ البشري، قبل أن يكون مسلماً، وهو لن يستطيع أن يسهم في إصلاح اعوجاج العالم الذي ينتمي إليه تديناً، ما لم يصلح ذاته أولاً، إذ كيف يمكن لمعتل منهك أن يعالج معتلاً غيره؟

ولعل في تاريخ أوروبا الحديث خير شاهد على مذهبنا هذا، حيث نرى الحروب الداخلية تعصف بأوروبا تحت لافتة وراثة الكنيسة القومية، طوال ثلاثة قرون متواصلة، منذ القرن الثامن عشر وحتى القرن العشرين، انتهت بكوارث عالمية كبرى، حتى نهضت القوميات المتعددة، حينها خلقت قناعات الاعتراف المتبادل بين الشعوب والدول، وحينها قررت دول أوروبا تثبيت سياسة التعاون والتكامل بدلاً عن المنافسة والصراع.

إن أي قفز لتسلق المشروع العالمي بالاعتماد على الروح الدينية العامة للمسلمين أو لعالم الشرق، قبل تحقق البعث القومي والوطني لكل أمة وشعب من شعوب العالم الإسلامي، لن يكون سوى مغامرة أيديولوجية تكرر نموذج القرشية والهاشمية، وتصادر الاستقلال الوطني والدولة القومية، لحساب نزعات استغلالية جديدة، ولكن هذه المرة لن تكون لصالح الأموية والعباسية، بل لصالح العثمانية والفارسية، فهما القوميتان الوحيدتان اللتان تمتلكان مشاريع تجييش للمسلمين في الوقت الراهن، ولن يكون من حظنا كأمة يمنية لم تستعد دولتها الوطنية القومية بعد، إلا أن نكون جنوداً وخدماً يقدمون أرواحهم بلا ثمن لنهضة غيرهم، ودمار وطنهم، وتقديمه كملعب للصراع الطائفي لمئات السنين القادمة، تماماً كما حدث لآبائنا المندفعين للفتوحات في عصر الأمويين والعباسيين، فبينما ذهبوا لنشر الإسلام وتوسيع حدود الامبراطورية القرشية، عادة أجزاء قريش الطامحة للسلطة لغزو واحتلال وطنهم وأمتهم، بالتحالف مع الفرس، تحت دعوى نشر الإسلام الهاشمي السلالي المعلب بخرافة القداسة السلالية، وأخدوعة القرابة والولاية.

إنه ليتوجب علينا اليوم كنخبة قومية بعثتها أقدار التاريخ لإنقاذ الأمة اليمانية، واستعادة روحها الحضارية، أن نستفيد من أخطاء آبائنا واندفاعاتهم المتعجلة، وأن نؤسس لعود حضاري للأمة اليمانية مرتكز على روحها التاريخية المتفردة، ورصيدها المعرفي والثقافي الذي يكتنز جميع خصائصها الحضارية كأمة مستقلة ذات حضور وشهود متفرد في تاريخ البشرية.

إن مهمة الأمة اليمانية الإحيائية اليوم تنصب بالدرجة الأولى حول وجوب بعث تراثها الحضاري الأصيل، فهو أساس وجودها الحضاري، وبوابة عودها الذاتي، ولا يمكن لأمة أن تبعث مجدداً في التاريخ بروح غيرها، أو بالفائض المشترك مع الأمم الأخرى، تماماً كما لا يمكن لأي فرد أن يبعث بروح غيره.

وكما يبعث كل إنسان بمفرده ملزماً بتراث أعماله وخبراته في الحياة السابقة، كذلك تبعث الأمم في التاريخ باستقلال تام عن غيرها، وأيما أمة تحاول أن تنبعث من روح غيرها فقد قررت أن تفنى فناءً أبدياً لا بعث بعده، ولقد أثبتت الفلسفة المعاصرة استحالة فكرة تناسخ الأرواح التي جاءت بها الصوفية العربية وبعض الفلاسفة الأوربيين في عصر الأنوار، أمثال فيورباخ وسيبنوزا، ذلك أن التكوين النفسي والفسيولوجي يختلف من إنسان لآخر، وإنما روح المرء مطابقة لذاته، وإذاً فلا يمكن أن تنقل إلى غيره بالتناسخ، وهكذا هي الحضارات والأمم تكتسب من بعضها الخبرات المعرفية والتجارب العملية، لكنها لا تستعير الروح الحضارية، ولا الدافعية الذاتية.

إن التراث القومي للأمة اليمانية ليس مجرد رصيد للاعتزاز ومقام للفخر، بل هو بعث للذات الحضارية للأمة، إنه ثورة جذرية على الواقع المنكوس الذي جلب لأمتنا اليمنية الذل والعار، ووصمها بالتخلف والخرافة، وألزمها الوصاية والتبعية، فإحياء التراث الحضاري لأمتنا يعني بشكل دقيق إعادة انتاج روحها الحضارية الأولى، وفق الشروط الزمنية المعاصرة، لتستعيد الأمة اليمانية العظيمة حضورها الفاعل بين الأمم المعاصرة، متسلحة بذاتها المستقلة المتفردة، وقدرتها على الإسهام في المنافسة الحضارية والمعرفية الراهنة، كإسهامها في الزمن القديم.

م٤: مثاليتنا القيمية

أمة واحدة – أصالة تاريخية – وحدة فكرية

تستمد الأمة اليمانية أخلاقها وسلوكياتها عبر التاريخ من منظومة قيم أصيلة في تاريخ وجودها، متجذرة في أعماق روحها، وممأثرة للأجيال في ترابها وأحجارها ونقوشها الحضارية، كانت وستظل تشكل رؤيتها الاجتماعية، ونسيجها الوطني، وشبكة علاقاتها الداخلية والخارجية، سيما في مراحل تاريخها الحضاري القديم المستقل عن تراث عصور التخلف والتراجع والانحطاط الذي أفسد الذائقة الحضارية للأمة اليمانية، عبر نشر منظومات قيم وأفكار خرافية واستعلائية عنصرية وافدة في صورة دين مزيف متجسد في صنمية سلالية غازية، أضفت عليه وعلى صنميتها وأطماعها صفة المقدس، وجعلت من نفسها آلهة من الشياطين، تنفث في عقل الشعب اليمني المخدر، آيات سحرها وشعوذاتها، وتدفع به في لحظات سباته وغياب وعيه إلى اعتناق قيم الكهنوت والخرافة، بتقديس سلالة أصنام وكهان، غازية محتلة، وتشرب أفكارها وأخلاقها العنصرية والتدميرية، بخديعة أنها تمثل قيم الإسلام والدين والرسالة الخاتمة.

إننا حينما نفحص تراثنا القومي الخالد، ورصيد أجدادنا العظماء المخلدين، نقف على مصفوفة من الحقائق الكبرى شكلت مرجعيات قيمية وأخلاقية عليا للأمة اليمانية، ملوكاً وأقيالاً وشعباً ودولة، وحضارة وأمة، نسردها لأقيال اليمن المعاصر على النحو التالي:

- **أمة واحدة**

عبر تاريخ الأمة اليمنية الذي يزيد على سبعة ألف عام، لا نكاد نرى سوى حقيقة وجودية واحدة، هي حقيقة الأمة اليمانية الواحدة، فالأمة اليمنية ليست كغيرها ائتلاف من عدة شعوب وأعراق دفعت به إلى التاريخ لحظة الضرورة، فأمريكا مثلاً تشكلت منذ القرن السادس عشر الميلادي من عدد من القوميات والأجناس والأعراق، ودفعت بها حروب الاستقلال إلى الائتلاف في وحدة سياسية مؤتلفة من متعدد، ومثلها في التاريخ القديم الأمة الهندية التي ائتلفت من عدة قوميات وأعراق، ولا تزال على طبيعتها الائتلافية حتى هذه اللحظة، لكن الأمة اليمانية يجمعها وجود تاريخي واحد عبر الزمن، واحد في اتصال النسب إلى قحطان بن هود، فهو الأب الأعلى لكل أجزاء الأمة اليمانية، وواحد في الوجود التاريخي، فهي أمة وجدت في التاريخ في لحظة ميلاد واحد، حينما ظهرت دولتها الموحدة الأولى في عهد الملك سبأ بن يشجب بن يعرب، واستمرت على حقيقتها وطبيعتها التاريخية، كأمة واحدة متجانسة، لا يفرقها شيء، ولا سقف دون شبكة علاقتها الذاتية حاجز، وحتى في

مراحل تفرق سلطانها، ونشوء الدويلات المستقلة، ظلت الأمة اليمنية أمة واحدة، وظلت الجغرافيا الحضارية جغرافيا موحدة، ولكم أن تنظروا في التاريخ كيف نشأت دويلات متعددة في التاريخ القديم والوسيط، وأخذت كل دويلة تطبع مواطنيها بهويتها الخاصة، في محاولة لخلق شعب مستقل، فأطلقت شعب مكاريب سبأ ، وشعب معين، وشعب أوسان، وشعب قتبان إلخ، ومع ذلك ، هل ذابت الهوية الواحدة للأمة؟ الجواب لا، فعلى الرغم من نزوع الدول المستقلة لخلق هويات بديلة عن المسمى العام والهوية الجامعة للأمة اليمنية، إلا أنه بمجرد انهيار تلك الدويلات، وعودة الروح القومية الواحدة على يد عباهلة حضرموت من التبابعة المتأخرين، انمحت كل الهويات التجزيئية، وعادت الروح القومية الجامعة للأمة اليمنية، فتأسست دولة تبابعة حمير الوطنية، وصار لها مجلس رئاسي يجمع كل أجزاء الأمة اليمانية.

وفي التاريخ الوسيط سعت الهاشمية الهادوية العلوية الغازية بكل الوسائل لمحو هوية الأمة اليمنية وتاريخها، وتمزيق الجغرافيا الوطنية للأمة اليمنية، والنسيج القومي والوطني للأمة عبر بث سموم الفرقة الطائفية والمذهبية، وتحويل المذهبيات إلى دويلات بديلة عن الهوية التاريخية الجامعة للأمة، ورغم تطاول ليل الظلمة المذهبية، وكثرة الدويلات المختلقة في جسد الأمة، واتفاق رؤية الاستعمار الأوربي والبريطاني مع السلاليين الهاشميين في تمزيق جسد الأمة اليمانية، وتقطيع أوصالها، إلا أن الوحدة الشعورية للأمة اليمنية قهرت كل التحديات، وفي ظرف لحظة واحدة سمعت الأمة اليمانية صوتاً من أعماق الروح القومية الأصيلة، يناديها للثورة ضد الإمامة والاستعمار معاً، فهبت تنفض غبار الزمن، وتقاتل الإمامة المحتلة في صنعاء، والاحتلال البريطاني في عدن، بروح واحدة، وهدف واحد، حتى تحررت من الكهنوت الإمامي السلالي، ونالت الاستقلال السياسي.

إن من طبيعة الأمة اليمانية أنها تختلف في ميدان السياسة والسلطة السياسية في بعض مراحل تاريخها، تبعاً لاختلاف نخبتها السياسية، أو بفعل تدخل خارجي في صورة احتلال سياسي أو غزو ثقافي كالمذهبية والطائفية، لكن خلافاتها وصراعاتها تقتصر على مراحل غياب الدولة الجامعة، وغياب الروح القومية الواحدة، فإذا ما حضرت الروح القومية الواحدة، وبعثت الدولة الجامعة فإنها تلتف لفة رجل واحد خلف تلك الروح القومية، وتتخلى عما سواها من عصبيات تجزيئية، لأنها تجد في الروح القومية الجامعة حقيقتها الوجودية الأولى، وبنفس المقدار تنعكس في مراياها روحها الراهنة، وطموحاتها المستقبلية.

إن حقيقة الأمة الواحدة تتراءى في أعماق الروح اليمنية في لحظة صفاء نفسي، لدى كل يمني داخل اليمن أو خارجه، فمهما كانت بواعث الفرقة والخلاف السياسي،

ومهما ظهرت من أصوات وظواهر تنزع إلى التفكك بادعاء المغايرة، إلا أن حقيقة الأمة الواحدة كامنة في نفس كل يمني، في خفاياً الروح، وفي الضمير الباطن، ويعترف بها كل يمني لأخيه في لحظات الصفاء القومي، والنقاء الروحي، وهو ما نسميه بحقيقة الروح القومية الواحدة للأمة اليمانية، وهي العامل الأقوى في هندسة البعث التاريخي لأمتنا اليمنية بعيداً عن أسباب الفرقة والخصومة ودوافع الصراع السياسي والمنافسة التعددية.

الهاشمية وحدها هي الظاهرة الوحيدة التي تبدو نشازاً عن الروح القومية الواحدة للأمة اليمانية، ذلك أنها تكونت من عناصر قرشية دخيلة غازية، وفدت اليمن طمعاً في بناء سلطان خاص بسلالتها العنصرية الاستعلائية، بالتحالف مع القومية الفارسية، بعد أن فشلت في منافسة بني عمومتها من العباسيين على الخلافة في بغداد، وفي لحظة فراغ قومي للأمة اليمانية، قررت هذه العناصر السلالية غزو اليمن بالتحالف مع الفرس، تحت ستار تعليم الدين، وأكذوبة القرابة وفرية السلالة المطهرة، مستغلة طيبة اليمنيين وخلو اليمن من النخب السياسية والثقافية بعد خروج أغلب اليمنيين للفتوحات والغزو.

إن هذه السلالة الكهنوتية المحتلة بعباءة الدين المعلب، تنتظم عناصرها المبثوثة في مناطق اليمن، في هوية قومية سلالية مندمجة بين الهاشمية والفارسية، مناهضة للهوية القومية للأمة اليمانية، فهي عبارة عن عصابة مستقلة داخل الشعب اليمني، يربط بينها العرق ومعتقد الاستعلاء، تعيش وهم المسيدة والطبقية والنبالة، وتستخدم الدين كمعلبات خاصة بها، تبيعها للجهلة والأميين، لتدفع بهم لقتال أمتهم اليمنية واستلاب وجودهم الحضاري لصالح السلالة العلوية الغازية.

إن وظيفة هذه السلالة الكهنوتية الهاشموفارسية الغازية منذ أن وفدت أرضنا الطاهرة، تتركز على تفكيك الأمة اليمنية، وتدمير الهوية والروح الوطنية، وافشال قيام الدولة اليمنية المستقلة، عبر افتعال سلسلة لا متناهية من الحروب السلالية تحت مسمى الإمامة والبطنين والحق الإلهي، وإنه ليتوجب على كل أبناء الأمة اليمنية، أن يطهروا أرضهم ووطنهم من هذه السلالة الهاشمية الفارسية التي دمرت اليمن، وأحالته إلى ركام وخراب ومقابر عبر التاريخ الوسيط والحديث والمعاصر.

- **أصالة تاريخية**

من القيم العليا التي تتمتع بها الأمة اليمانية أنها أمة أصيلة، غير طارئة في التاريخ البشري، يمتد تاريخها لسبعة ألف عام، ويسبق وجودها الحضاري في قلب التاريخ كل الأمم والحضارات، وهذه الأصالة متى بعثت في الضمير القومي، فإنها تمنح الإنسان اليمني الشعور بالتفرد والاستقلالية، وتدفع به للثورة على واقعه المتخلف البائس، إذ كيف يرتضي واقعاً مدموغاً بالذل والتبعية والوصاية، وهو ينتمي إلى أمة عظيمة سبقت غيرها في تطويع التاريخ وبناء الأمجاد.

إن قيمة الأصالة ليست مجرد مقام للمفاخرة والاعتزاز، ولكنها في الأساس خلق أصيل لأفراد الأمة اليمنية، فالإنسان اليمني أصيل في تاريخه المتقدم على كل الأمم، أصيل في نسبه لقحطان وسبأ وحمير، في انتمائه لأعظم حضارة إنسانية على وجه الأرض، وأصيل في ثقافته التي خلدت الحقيقة وقدستها دون غيرها، أصيل في أخلاقه فهو معدن الطيبة والكرم والنخوة والرجولة والنقاء، أصيل في شجاعته فهو منبع الفروسية والنضال والبطولة، أصيل في عقيدته، فهو أصل التوحيد ومعرفة الله الواحد قبل غيره من الأمم، أصيل في معدنه فهو لا يعرف الأنانية والحقد، أصيل في عروبته، فهو أصل العرب ومنبعهم وكلهم يدين له بالبنوة، فمن ليس بيمني فليس بعربي، أصيل في قوميته فهو ينتمي لخير قوم امتدحهم الله، وأفرد لهم سورة كاملة في قرآنه، وبنفس المقدار يجب أن تتجسد قيمة الأصالة سلوكاً جماعياً لدى الأمة اليمانية، شعباً ومجتمعاً ودولة، تنبثق منها التوجهات السياسية، وتجسدها الثقافة القومية العامة في كل جوانب الحياة. فهذه هي الأصالة القومية التي ترجمها الزعيم القومي الجمهوري الراحل، الرئيس القاضي عبد الرحمن الارياني، وهو يخط معالم رؤية المشروع القومي للأمة بقوله:

آل قحطان مجدكم لا يضاهى...لمَ جهلتم يا آل قحطان شانه

إن تاريخ مجدكم صفحة الدهر... به دون غيره مزدانة

قد سبقتم إلى الحضارة في العالم ...من قبل أن يرى إيوانه

آل قحطان آن أن يوثق المجرم... هذا ويودع الزنزانة

خدعتكم لصوص عدنان باسم... الدين غشاً وخدعة وكهانة

إن تاريخكم رهيبٌ مليءٌ ... بالمآسي فيه تحار الإبانة

ألف عام وأنتم في متاهات... خضمٍ جهلتم شيطانه

ليس في الدين سيدٌ ومسودٌ... فاقرؤوه وحققوا قرآنه

- **وحدة الفكر والنضال**

إن من أساسيات البعث الحضاري لأي أمة أن تتلقى في لحظة ايقاظها العملي، خطاباً فكرياً وروحياً واحداً، ذلك أن الخطاب المتعدد في لحظة الفواق التاريخي يفسد يقظة الأمة ويشتت وعيها الذاتي، ويسوقها دون وعي إلى وجهات متعددة، تعيد دفن روحها المندفعة، إما في ركامات التخلف ومقابر الأفكار البالية المندرسة، أو بين أكوام القمامة الأيديولوجية الوافدة، فتقع الأمة بين حدين الجمود والتقليد، أو القابلية والاستلاب والتلقين، فإما أن تذهب إلى عصور الانحطاط فتقدح منها حمولات من الخرافة والجهالة، أو تفز إلى خارج ذاتها فتستجمع نفايات الأمم، وهذه الحالة بذاتها تجسدت في استجابة النخب العربية للصدمة الحضارية مطلع القرن العشرين، حيث انقسمت النخب العربية بسبب سؤال التخلف إلى اتجاهين، تقليدي ذهب إلى التراث الإسلامي ليحتمل أوزار القرون، ويقيم احيائية كلاسيكية أعادت انتاج عصور الانحطاط والطوائف بكل تفاصيله وفرقه، واتجاه حداثي قفز على الواقع إلى استيراد الأذواق الأيديولوجية للحضارة المعاصرة، فلم يكسب الشعوب أسلوب حضارة، بقدر ما أورثها الاستلاب والتبعية.

إن الوحدة الفكرية في تاريخ أمتنا اليمنية العظيمة يجسدها خط المسند كشاهد مخلد، يثبت للأجيال وحدة التوجيه الفكري والثقافي للأمة اليمنية، فعلى الرغم من تعدد دويلاتها السياسية في مراحل متعددة من التاريخ القديم، إلا أن جميع نقوشها المعرفية والثقافية والسياسية نجدها مدونة بخط واحد، هو خط المسند المقدس، لا يختلف باختلاف المكان ولا الزمان ولا الملوك ولا الدول، وهو ما يعني أن أمتنا العظيمة كانت تدرك جيداً أهمية الوحدة الثقافية في الحفاظ على روح الأمة وحضارتها ووجودها التاريخي، مهما اختلفت السلطات السياسية.

وثمة شواهد أخرى تؤكد أهمية الوحدة الفكرية كقيمة عليا للأمة اليمانية في تاريخها الحضاري، ومن تلك الشواهد أنها كانت تستجيب للأفكار أو الرسالات بشكل جماعي، كأمة لا كأفراد، فالفكرة الوافدة أو الدخيلة، مهما كان خطؤها أو صوابها، لا تكتفي بمعارضة الفكرة الأصيلة للأمة، بل تزعزع ثقة الأمة بذاتها وقدراتها المعرفية، وتسلبها الاستقلال الثقافي، فيكون ذلك سبباً في تمزق الروح القومية، وتفكك الوحدة العضوية للأمة، وحينها تجد القوى الاستعمارية الطامعة مدخلاً لتدمير إمكانات الأمة واحتلال أراضيها، ومصادرة استقلالها.

إن الأمة التي لا تحكم وحدة الخطاب الفكري والثقافي في مرحلة انتباهتها الأولى، تصاب بصعقة الذهول، فتفقد دوافع النهوض وشروطه النفسية، فتفضل الاستكانة، وتستسلم للواقع خوفاً من المجهول، أو بدعوى التعايش مع الألم، رافعة

شعار" ليس في الإمكان أفضل مما كان"، وهذه الصعقة ذاتها هي التي أصابت النخب اليمنية في نهاية عقد الستينيات، ومطلع السبعينيات من القرن العشرين، إذ قبلت بمناصفة السلطة مع الإماميين تحت مبرر الخروج من الصراع، فكانت النتيجة تأجيلاً للعلة إلى الأجيال القادمة، وها نحن اليوم نرى فصولها الأخيرة في صورة المليشيا السلالية الحوثية.

وبإزاء وحدة التوجيه الفكري لحركة البعث التاريخي للروح القومية تقوم وحدة النضال القومي تجسيداً عملياً لوحدة الفكرة والتوجيه، فلا يصح بحال أن يناضل قيل لحساب منطقته أو حزبه أو جماعته أو فئته أو قبيلته على حساب الروح القومية للأمة، ومشروع البعث القومي للذات الحضارية، بل يتوجب أن تجند كل الإمكانات والأطر، لتصطف جميعها في خدمة العقيدة القومية للأمة، وإعادة بعث الذات الوطنية المستقلة للأمة اليمنية، فالروح القومية تشكل أرفع درجات النضال الوطني، وأعلى مراتب التضحية والفداء في سبيل نهضة الأمة، وليست الأطر الحزبية أو الفئوية سوى أدوات لخدمة العقيدة القومية وتشكلاتها في الوعي الثوري الانبعاثي التحرري للأمة اليمانية.

إن وحدة التوجيه القومي الفكري والنضالي للأمة يشكل الضمانة الحقيقية لبعثها الحضاري، والأساس المتين لثورتها التغييرية الجذرية التي تخلصها من عصور التخلف والانحطاط، وتضعها على طريق عود حضاري متجدد، ونهضة وطنية مستقلة.

إن خطاب المذهبية والطائفية والمناطقية والأيديولوجية الوافدة تشكل عوامل اختزال لروح الأمة اليمنية، ومسالك تشويش لوعي الأمة في لحظة فارقة، وإنه ليتعين على الجيل الحاضر العمل الدؤوب على صهر وتذويب كل هذه الأشكال التشتيتية في وحدة توجيه فكري واحدة، هي وحدة التوجيه القومي الوطني للأمة اليمانية.

م٥: عقيدة الفداء القومي

يعتقد المسيحيون أن عيسى – عليه السلام- أفدى بنفسه تضحية من أجل محو خطيئة بني الإنسان، وقد صدرت عقيدة الفداء المسيحي عن اجماع كنسي في مجمع نيقة ٣٢٥م، وذهب لوثر وأغلب الطوائف البروتستانتية للقول بأنه بالإيمان وحده ينال الإنسان الخلاص بغض النظر عن أعماله.

ويعتقد أتباع الديانات الابراهيمية أن إبراهيم أفدى بابنه الذبيح لإقامة البيت الحرام، فيحتفل المسلمون بعيد الأضحى، تجسيداً لقصة "الذبيح إسماعيل" بحسب المعتقد الإسلامي، فيما يحتفل اليهود ب "روش هشانا" وهو عيد آخر السنة اليهودية - كما يطلقون عليه - بعد انتهاء شهر أيلول العبري، ويعتقدون أنه ذكرى أضحية الذبيح إسحاق.

وبالمثل يعتقد البوذيون أن بوذا فدا بنفسه لخلاص البشر، وهم يسمون بوذا المسيح المولود الوحيد، ومخلص العالم، ويقولون: إنه إنسان كامل، وإله تجسد بالناسوت، وأنه قدم نفسه ذبيحة ليكفر ذنوب البشر ويخلصهم من ذنوبهم حتى لا يعاقبوا عليها، ومثلهم يعتقد الهنود أن "كرشنا" المولود البكر من الإله فيشنو تحنن على أهل الأرض فأتاهم وخلصهم بتقديم نفسه ذبيحة عنهم.

وفي الإسلام نجد ملامح عقيدة الفداء والتضحية في مصطلحي الجهاد والشهادة في سبيل الله، حيث تشكل عقيدة الجهاد والاستشهاد أعلى درجات الإيمان والإخلاص، وهي ترتبط بالله مباشرة فتصبح أفعالاً مقصودة لذاتها مجردة عن كل المنافع المادية والدنيوية.

وبغض النظر عن البعد التأليهي للمسيح أو لبوذا في عقائد المسيحيين أو البوذيين، والتي تخالف حقيقة الطبيعة البشرية، إلا أننا نلاحظ تركيز كل الأديان دون استثناء على عقيدة الفداء والتضحية من أجل القيمة العليا والمبدأ الديني المتمثل في العقيدة.

ولا تقتصر عقيدة الفداء والتضحية على الأديان السماوية فحسب، بل نجدها في الفلسفات العملية، وإن بشكل آخر، فالرؤية الأخلاقية الأفلاطونية تقوم على أساس نظرية المثل أو القيم، وهو يقسمها إلى مستويات ثلاثة، الخير الأسمى والفضائل والسياسة، فالخير الأسمى يضاد الطبيعة الجسدية الشهوانية للإنسان، وأقصى

غاياته التضحية بإخلاص لنيل السعادة، وتحقيق المدينة الفاضلة التي هي صورة لعالم المثل، ذلك أن النفس البشرية جوهر روحاني مفارق موجود قبل البدن، وسيظل موجوداً بعده، غايته الفضيلة العليا والفناء الروحي والعود إلى عالم المثل.

ولدى أرسطو تتجه فلسفة الأخلاق لتحقيق الخير والسعادة لعامة المجتمع، وتتجسد من خلال العلاقة التكاملية بين الفكرة والشخص، أو الفرد والمجتمع.

وفي النظرية الشيوعية يكتسب مبدأ التضحية مكانةً عالية من حيث القيمة والفعالية، ويطلق عليه "الكفاح التحرري" وهو كفاح الطبقة المسحوقة البروليتاريا ضد الطبقات المستغلة البرجوازية والارستوقراطية، ويعطي مصطلح "الرفاق" قدسية للنضال التحرري الشيوعي، فهو نضال لرفع الظلم التاريخي والاجتماعي وتحقيق العدالة الاجتماعية بين كل البشر دون تمايز ولا طبقية.

إن الأفكار التاريخية والنظريات والأديان والفلسفات التغييرية تعتمد من زاوية الفعالية على مبدأ الفداء والتضحية، فالتضحية في سبيل الفكرة أو العقيدة تمنحها طاقة اتقاد عليا في نفوس أتباعها، فيكتسب أتباعها القدسية والإخلاص والفناء في المبدأ، فيستحيل عليهم استبداله أو المساومة عليه، كما أن الفداء والتضحية تمنح الفكرة والعقيدة فعالية التأثير في الواقع العملي والبيئة الاجتماعية، فتحقق العقيدة بالصدق والصوابية يتأتى من خلال مبدأ الفداء والتضحية، لأن مبدأ الفداء والتضحية يشكل أعلى درجات اليقين والايمان.

إن حقائق التاريخ تمنحنا تأكيداً وثيقاً أن أي مشروع رسالي دينياً كان أو قومياً أو انسانياً، يضمن بالضرورة شرط الفداء والتضحية، وربما نجحت فكرة غير منطقية سلك مسلك الفداء، وخسرت فكرة منطقية وهجها وحضورها الاجتماعي بسبب تباطؤ أتباعها في التضحية في سبيل نصرتها، ولقد حفظ لنا التاريخ الكثير من الأفكار والعقائد التي تمددت بفضل تضحية أصحابها، لا بفضل اتساقها المنطقي، وبعدها الاستدلالي، بل إن بعضها لم يكن يملك إلا وهج التضحية وبريقها، وهذه الحقيقة القديمة قدم التاريخ لا تزال وستظل تشكل منهجاً لكل الحركات والفلسفات والنظريات التغييرية في العالم، ذلك أن انتقال الفكرة والعقيدة من مجال التجريد إلى ميدان التحقيق الاجتماعي يتطلب اثبات صدق التوجهات ومصيرية التضحيات، فالمجتمعات لا ترتبط بالأفكار وتلتف حولها، ما لم تدرك أنها تشكل لها وحدة انتماء ومصير.

وتشكل عقيدة الفداء والتضحية أعلى مراتب الايمان القومي، وذروة سنام العقيدة القومية، فالعقيدة القومية تتجسد في الواقع من خلال تضحيات الأقيال وتفانيهم في سبيلها، ذلك أن الايمان بالعقيدة القومية لا يتوقف عند مجرد اليقين القلبي

بمصداقيتها وصوابيتها، بل يستلزم التحقيق العملي من خلال الفداء والتضحية القومية، فالإيمان القومي، قول واعتقاد وعمل، من خلال اليقين الذي لا يخالطه شك ولا ريب، والدعوة القومية التي لا يخالطها حظ من حظوظ النفس ولا رياء ولا مصلحة، والتضحية الخالصة بالمال والجهد والوقت والنفس متى استدعى ذلك لتحقيق الثورة القومية التحررية الخالدة، لتخليص الأمة اليمانية من الاحتلال الهاشمي الفارسي، وتحقيق الاستقلال وبناء الدولة القومية الناهضة.

بحمد رحمن ذي سماوي

انتهى الجزء الأول من كتاب العقيدة القومية للأمة اليمانية

٢٧ مارس ٢٠٢١م